١١٠٤
دار م. النحاس

كبير

1104
HARLEQUIN

الوصي الغامض

ريبيكا كينغ

www.elromancia.com
مرمورية

الوصي الغامض

ريبيكا كينغ

قد يبدو هذا الأمر شاعرياً بالنسبة للبعض، ولكن ليس بالنسبة إلى فيليسيا ناوتون عندما يكون رفيقها الوحيد هو براند كارادين، الرجل الغامض.

كان براند سجانها ووصيها القانوني... وان كان هذا لا يعني انها بحاجة إلى وصي، كما ان رأيه فيها لم يكن فيه ما يشرفها، فهو لم يكن يراها أهلاً لأن تخرج من بيتها بمفردها، ولكن كان من الغريب أنها عندما حان الوقت لكي تغدره بعد ان وصلت إلى سن الرشد، وجدت صعوبة بالغة في ان تنفصل عنه، فهل كانت في اعماقها تريد ان تبقى مع براند؟

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

اخترقت عينا براند الرماديتان كيان فيليسيا.

«بالمناسبة، نسيت ان أغسل الأطباق الليلة الماضية فهل لك ان تغسليها... من فضلك؟»

كان بإمكانها ان تقوم بذلك الليلة الماضية... وبكامل رضاها ان لم يكن بسرور بالغ، هذا إذا كان براند بجانبها يساعدها، ولكي تقتل الألم المفاجيء الذي تملكها إزاء تلك الصورة الذهنية، صاحت تقول: «كلا، لا أريد.» ثم اختطفت الطبق الذي يحتوي على الخبز وقذفته به.

وإذ مر الطبق من جانب أذنه، نهض واقفاً وهو يقول: «هذا عمل صبياني للغاية.»

«اتعلم يا براند كارادين؟ انا اكرهك، انني اكرهك حقاً.»

فنظر اليها وقد تألقت عيناه، ثم قال: «هذا لا يهمني.»

ريبيكا كينغ

تعيش ريبيكا كينغ مع زوجها وابنتيها وحيوان هامستر في منزل قرميدي قديم في قرية ورسسترشاير. لطالما ارادت ان تكون كاتبة، لذا عملت صحفية (بما في ذلك مراسلة صحيفة سياحية في جامايكا حيث عاشت لثلاث سنوات) وكتبت قصصاً للاطفال قبل تحولها إلى القصص العاطفية. البحث عن مواقع لأجل قصصها كان عذرها المثالي لتحقيق همها الاصلي وهو السفر، كما وانها تبدع بعد مشاهدتها للافلام الكلاسيكية القديمة.

عبير ١١٠٤

Abir 1104

الوصي الغامض

ريبيكا كينغ

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

الفصل الأول

«سومبرا؟»

وتقبضت اصابع فيليسيا على قطعة الورق تكرشها ثم تلقي بها على الرمال.

«ماذا كان نصيبك في القرعة، يا فيليسيا؟»

كانت عدة ازواج من الأعين تنظر اليها بفضول، وكان عليها ان تتمالك نفسها بشكل ما.

قالت بعدم اكتراث رغم انها كانت تعلم ان صوتها يرتجف: «آه... سومبرا، هنالك صدفة في بحيرة السباحة عليّ ان احضرها.»

فصفرت فتاة كانت تستند إلى جذع شجرة، ثم سألت ببراءة: «من ذا الذي فكر في ذلك؟»

نعم، من هو في الواقع؟ اخذت فيليسيا تفكر في ذلك عابسة، وكيف ورطت نفسها في لعبة الجرأة هذه؟ لو انها فقط غيرت اتجاهها هذه الليلة بدلاً من الالتحاق لهذه المجموعة المتكاسلة في شمس العصر حيث كانوا يضعون قائمة بما على كل منهم ان يحضره هذه الليلة إلى حفلة الشاطىء، إذن لما وجدت نفسها في غمرة هذه الفوضى.

سومبرا... لقد كان جدها اخبرها ان هذا الاسم يعني الظل فيا له من اسم ملائم لتلك الفيلا المنعزلة الجاثمة على ذلك الرأس البحري في البحر الكاريبي والمختبئة بين الآجام واشجار الصنوبر، كانت تكره ذلك المكان حتى في ضوء

النهار، فقد كان دوماً يبعث القشعريرة في جسمها وكأنها تراه في فيلم رعب.

وإذ تملكتها رعشة خفيفة، أدركت ان احد اولئك الفتيان المنبطحين بجانبها كان يلامس بسعفة نخل جافة، يدها، فابتعدت عنه.

وكانت الفتاة تقول: «آه... يا لذلك المستأجر الجديد...»

فسألتها فتاة كانت تصلح زينتها امام مرآة صغيرة بيدها: «وهل رأيته يا لوريتا؟ في رأيي انه شخص انعزالي معتوه أو ما اشبه ذلك، لم يسبق له ان خرج قط من هذا المكان.»

«آه، نعم لقد رأيته لقد جاء إلى متجرنا منذ ايام حيث اشترى بعض الأطعمة.»

فعادت الفتاة الأخرى تقول: «وكيف كان شكله؟»

«حسناً، اكثر من ستة اقدام طولاً، شعر اسود، عينان رماديتان... كما انه..»

«كما انه ماذا؟»

فأجابت الفتاة: «يبدو من النوع الخطر نوعاً ما..»

والتفتت إلى فيليسيا التي كانت تشعر بالشحوب يكسو ملامحها، وهي تسألها: «ماذا حدث؟ انك لست دجاجة، أليس كذلك؟ انظروا يا جماعة إلى هذه الدجاجة الجبانة.»

فقالت فيليسيا وهي تمد منشفتها على الرمال ثم تتمدد عليها، قالت باحتجاج: «أنا دجاجة؟ لا بد انك تمزحين انني سأذهب حالما يظلم الليل.»

«انني أتبادل معك إذا شئت، وبعد فان طفلة مثلك لن تعرف كيف تتصرف مع رجل ضخم مثله.»

ساور فيليسيا التردد لجزء من الثانية، ولكنها ما لبثت ان لحظت شيئاً من سوء النية في عيني هذه الفتاة السوداوين، منذ اسابيع، أي منذ انجرفت مع هذه المجموعة وهذه الفتاة على الأخص، لوريتا، تحاول ان تعيرها بنقص التجربة، ولكن فيليسيا لن تفسح لها مجالاً لذلك الآن...

فقالت وهي تبتسم ببرودة: «كلا، شكراً، فكلما ازداد الرجل طولاً وضخامة كان افضل في نظري، ولكنني على كل حال ليس لدي النية في ان اجعله يقبض عليّ.» قالت ذلك ثم نفضت شعرها الأشقر الكث إلى الخلف وهي تنهض واقفة ثم تركض على طول الشاطىء إلى ان قذفت بنفسها إلى المياه الخضراء الضحلة.

سبحت مبتعدة عن الشاطىء بضربات قوية في ذراعيها، ليس للخلاص من لوريتا الكريهة، وانما أيضاً من هذا التوتر الغريب الذي مازال يتملكها منذ ايام.

وعندما تملكها التعب أخيراً انقلبت تسبح على ظهرها وشعرها ينتشر خلفها كالمروحة.

مالت برأسها تحدق إلى الأفق، والشاطىء.. إلى أي مكان يمكن ان يصرفها عن المشاعر التي تتملكها.

كان بجانبها اسراب من الأسماك الفضية رائحة غادية، وكان بعضها يتقدم بشجاعة محاولاً ان يقضم لحمها برفق، لا تكاد افواهها الضئيلة تحرك الوبر الذي يكسو جلدها، ومع ذلك فقد كان يشعرها هذا برعشة اشبه بتيار كهربائي خفيف يسبب لها البهجة والضيق في نفس الوقت.

«مرحباً، يا فيليسيا.» وكان هذا صوت احد الفتية وكان قد صعد إلى سطح الماء بجانبها.

قال لها بلهجة عفوية وهو يسبح على ظهره بجانبها: «كنت أفكر في ما اذا كنت حقاً تشعرين بالتوتر تجاه سومبرا... ليس لديّ مانع من المبادلة معك.»

فقالت باسمة: «آه، شكراً يا سكوت.» لقد كان هذا مختلفاً عن الآخرين... فهو رقيق للغاية، وتابعت تقول: «تعني انك ستدعني اسرق لافتة متجر رودني لكي يلاحقني كارل هنريك في كل أنحاء منطقة كينغستون؟ كلا شكراً سأقبل حظي كما هو مع رجل لوريتا الضخم.»

فقال غامزاً بعينه: «حسناً، ثمة شيء لا تعرفينه، بالطبع ولكن...» وسكت يريد اغاظتها.

فسألته: «ماذا تريد ان تقول عنه؟»

«انه خارج الجزيرة، لقد رأيته في المطار هذا الصباح وكان يستقل طائرة ميامي.»

فتملكها الارتياح، كل ما عليها ان تفعل إذن هو ان تواجه بشجاعة المخاوف المتعلقة بالمنزل، دون ان تخشى وجود صاحبه.

«اشكرك مليون مرة يا سكوت.»

«مرحباً بك، يا فيليسيا، وستعطينني المكافأة في الحفلة هذه الليلة.»

فابتسمت مترددة: «حسناً، هذا يعتمد على الظروف.»

• • •

«انك لن تخرجي مرة أخرى هذا المساء، أليس كذلك يا فيليسيا؟»

وعندما خرجت إلى الشرفة نظر اليها جدها من فوق

نظارتيه واخذ يتأمل سترتها القطنية السوداء وشعرها المكوم فوق رأسها ثم وضع من يده الكتاب الذي كان يقرأه.

فقالت وهي تلوح بيديها بشكل عابثة: «والآن يا جدي انك تعلم انني كنت اخبرتك ان موريس يقيم حفلة شواء في منزلهم على الشاطىء، وعليّ ان اذهب، ان كل المجموعة ستكون هناك.»

فسألها وهو يحملق فيها بقلق: «ولكن هل سيكون والداه هناك؟»

فقالت مترددة: «كلا، لن يكونا هناك، ولكن لا داعي للقلق فأنا لست طفلة، انني في السابعة عشرة.»

«ولكن تلك الجماعة التي ترافقينها... سمعت بأن البعض منهم قد وقعوا في مشاكل قبل... السرقة والمخدرات...»

انحنت بجانب كرسيه تحيط كتفيه النحيلتين بذراعها، قائلة: «جدي، اقسم لك انني لن اقدم على مثل هذه الأمور... ولا...» وعضت شفتها وهي تفكر في السرقة التي كانت على وشك الاقدام عليها، ثم اضافت بحماسة: «ابداً.»

«ولكنهم جميعاً اكبر منك سناً، كما انهم في منتهى الطيش.»

«حسناً، فأنت دوماً تنعتني بأنني طائشة.»

ولكنه لم يتأثر بلهجتها العابثة، فتنهد قائلاً: «وكذلك انت يا طفلتي الحبيبة، وقد طالما تساءلت، عندما ماتت والدتك...» وتلاقت اعينهما ثم تباعدتا.

فقالت بصوت خافت جامد لا يظهر آلام ذكريات السبع سنوات الماضية، قالت تكمل كلامه: «وعندما تزوج والدي ولم يعد يريدني.»

«آه، لا تقولي هذا يا حبيبتي.»

«لماذا لا؟ انها الحقيقة.»

فأمسك بيديها، يقول: «حسناً، مهما كان الذي حدث حينذاك، فأنت تعرفين انك كل شيء بالنسبة إلي، أليس كذلك؟» فأومأت ايجاباً وقد دمعت عيناها بينما كان هو يتابع قائلاً: «ولكنني دوماً أسأل نفسي عما اذا كان الأفضل لو انني كنت عدت إلى انكلترا لأعتني بك هناك بدلاً من احضارك إليّ هنا في جمايكا.»

فهتفت بذعر: «آه، كلا، ان حياتي معك هنا في جمايكا هو شيء رائع.» واخذت عيناها تجولان في انحاء الشرفة حيث الأثاث المصنوع من الخيزران بدهانه الأخضر الباهت، وقد لمعت عيناها حباً، ثم قالت له تغيظه ضاحكة: «ولكن هل كان بإمكانك ان تبتعد عن المرجان الذي تعشقه؟»

ونظرت إليه بشعور مفاجيء من الزهو، فهي لم تكن اعتادت قط في الحقيقة على فكرة ان جدها كان بالنسبة إلى الناس، هو الرجل العظيم السيد ج.غ. سينكلير الخبير العالمي بالمرجان في البحر الكاريبي والذي كتابه الذي كان وضعه عن الشعاب المرجانية حول جمايكا مازال معتبراً المرجع الأول في هذا الموضوع رغم مرور ثلاثين عاماً على نشره.

لكن قولها هذا لم يصرفه عن ان يقول: «ولكن ربما لو كنا هناك، حسناً... يقولون ان الفتيات الانكليزيات ينضجن في المناطق الاستوائية بشكل اسرع، ولقد اصبحت هنا امرأة هكذا فجأة دون ان يلحظك جدك العجوز الأعمى، بينما مازلت طفلة في داخلك.» وابتسم لها بحزن.

فقالت ساخطة: «ولكن هذا غير صحيح، يا جدي، فأنا قد

كبرت فعلاً، اتعلم ان معلمتي لم تعاقبني بالإحتجاز هذا الأسبوع؟ أمس فقط قالت لي...» واتخذ صوتها لهجة مسرحية وهي تقلد معلمتها، «فيليسيا ناوتون، انك مشاغبة أكثر مما يحق لك ان تكوني، ولكن مازال لديّ رجاء بإصلاحك.»

فقهقه ضاحكاً وهو يقول: «يا طفلتي العزيزة، انت شيء لا يمكن اصلاحه، ماذا سأفعل بك؟»

«وماذا سأفعل أنا بك؟» قالت نلك وهي تشعث شعره ثم تقفز واقفة.

فسألها: «ولكنك لن تذهبي الآن طبعاً.»

فأسدلت اهدابها الطويلة تخفي نظرة الشعور بالذنب في عينيها: «نعم... لا بد ان اذهب الآن، لقد وعدت موريس بأن اساعده في تجهيز مواقد الشواء، والآن لا اريدك ان تقلق عليّ، اعدك بأن لا أتأخر.»

ثم أمسكت بيده تقبلها، ثم انفلتت هاربة. ولكنها عندما اصبحت في آخر طريق المنزل ادارت عجلة دراجتها البخارية لا لتنحدر نحو المدينة والشاطيء، ولكن صعوداً إلى الطريق الذي يخترق حقول قصب السكر فوق التل، ومن ثم انحدرت نحو الرأس البحري القاتم اللون قبالة صخور البحر السوداء الكئيبة المظهر.

كانت عيدان قصب السكر الجافة تخشخش في نسيم الليل وكأنها همسات ضئيلة مخيفة نوعاً ما، في الأذن، وتملكها الارتياح تقريباً عندما رأت أعمدة البوابة المبنية من حجارة رمادية اللون واللوحة البيضاء مكتوباً عليها بأحرف سوداء ضخمة سومبرا.

تركت دراجتها البخارية خلف مجموعة من نبات الخيزران، ثم دخلت من خلال البوابة، كان القمر متوارياً خلف مجموعة من السحب، ومن حولها في هذا الظلام اخذت تسمع اصواتاً خافتة... اتراها من مخلوقات تراقبها ولا تستطيع هي رؤيتها؟ وشعرت بفمها يجف من الخوف، ومن ثم انطلقت هاربة من هذه الأصوات حتى لم تعد تسمع سوى صوت لهاثها.

ومن خلف الأشجار كان المنزل سومبرا والذي كانت الظلمات تحيط به، دون ان يبدو من أي من غرفة بصيص نور. حسناً، هذا افضل، فقد كانت الخشية تتملكها من ان يكون هناك أحد الخدم الدائمين، ولكنها ما لبثت ان اخذت تحدث نفسها، بما ان المستأجر قد سافر إلى ميامي، فليس ثمة خادم يحترم نفسه ويبقى في هذا المنزل بينما بإمكانه ان يكون في بيته في كينغستون.

ولكن عند ذلك فقط، تعالى نباح كلب من مكان ما، فأجفلت مرة أخرى، وقد اقشعر جلدها، ذلك ان كثيراً من البيوت في الجزيرة، خصوصاً المنعزلة منها، كان يحتفظ بكلب واحد على الأقل، مما يسميه المواطنون الكلاب السيئة... وهي مخلوقات يمكنها ان تقتلع ساق الشخص من الركبة حالما تهجم عليه، ولكن هذا النباح كان بعيداً ما جعل شيئاً من الارتياح يمتلك فيليسيا.

بقيت واقفة دقيقة، تحدق في الظلام، محاولة ان تجد طريقها، لم يكن ثمة أثر لحوض السباحة، ولكن ربما كان خلف المنزل، تنفست بعمق ثم رغم انه لم يكن هناك احد، وجدت نفسها تخلع حذاءها الخفيف قبل ان تنطلق راكضة

في الفناء الفسيح غير الممهد متجهة إلى ناحية من المنزل الساكن.

نعم، ها هو ذا حوض فسيح من المياه التي كانت من الهدوء أشبه بالساتين الأسود، وعند طرفه البعيد كانت هناك مجموعة من كراسي الشواطىء المستطيلة يمكن رؤيتها كظلال معتمة تحت الأشجار.

ولكن أين تلك التي جاءت من أجلها؟ تلك الصدفة التي عليها ان تأخذها معها؟ سارت عدة خطوات بمحاذاة حافة الحوض القرميدية، تتطلع حولها، وإذا بها تشهق غير مصدقة، لقد كان هناك خيال منحوتة... ربما كان لعروس البحر... نعم... نعم، فقد كانت تحمل في يدها شيئاً مستديراً كالصدفة وكان يلمع في الظلام، ولكن ما لم يخبرها به أحد، وخصوصاً لوريتا، هو ان موضع المنحوتة لم يكن عند حافة الحوض، كما كانت تتصور مسرورة، وإنما في وسط الحوض بحيث لا يمكن الوصول اليه.

«آه، تباً لذلك.» واخذت تحدق في المياه وهي تضرب بقدمها الأرض، ولكن حتى الآن لم يفت الوقت بعد، ان بإمكانها ان تقول ان المنحوتة لم تكن هناك وان المستأجر الجديد لا بد قد نقلها، أو ان الصدفة قد تحطمت، هذا إلى ان ليس عليها ان تذهب إلى تلك الحفلة السخيفة... ثم نعم حيث لوريتا وسكوت وكل الآخرين يطلقون عليها اسم الدجاجة أي الجبانة.

ولكن، كلا، ليس عليها إلا ان ترفع ثوبها ثم تخوض في الماء لكي تصل إلى تلك الصدفة، ولكن ما مدى عمق الحوض في الوسط؟ وكيف سيمكنها ان تفسر لجدها عند عودتها

إلى البيت سبب تبلل ملابسها؟ ألا يكفي ظنه السيء بتلك الحفلات التي اخذت تذهب إليها مؤخراً؟

ألقت نظرة أخيرة على المنزل الساكن، ثم أخذت تخلع سترتها.

انصتت لحظة مترددة، كان كل شيء هادئاً تماماً، ولكنها مع ذلك رأت نفسها ترتجف بعنف، ولكنها لم تشأ ان تتأخر اكثر من ذلك، فنزلت إلى الحوض، وبعد شهقة ضئيلة إثر تماس جلدها الدافىء ببرودة الماء، انطلقت نحو منتصف الحوض تشق المياه إلى ان تشبثت بقاعدة المنحوتة، أولاً، ومن ثم بمنحوتة عروس البحر نفسه.

«آسفة.» قالت ذلك تخاطب الوجه غير المرئي بعد ان احتكت اصابعها بالجسم الحجري.. ماذا لو ان المجموعة تراها الآن؟ وانفجرت بضحكة تردد صداها حول حوض السباحة.

وعندما قبضت اصابعها على الصدفة تشدها بقوة، إذا بهذه تنفصل فجأة عن الذراع التي كانت تحيط بها.

همست بانتصار، ها قد حصلت عليها، ثم رفعتها بيدها لحظة تنظر إلى تجاويفها البلورية قبل ان تحملها بيدها فوق المياه بعناية بالغة، ثم تسبح باليد الأخرى نحو حافة الحوض.

كان المكان هنا رائعاً حقاً، فالسماء الاستوائية الحالكة السواد فوق الرؤوس، والشذا العابق من الآجام والأشجار واحتضان المياه الساكنة لجسمها، كل هذا جعل السعادة تسري في كيانها. ماذا لو انها مكثت هنا قليلاً، تستمتع بالسباحة سراً عدة دقائق دون رفيق سوى عروس البحر تلك،

ولكن ما ان همت بوضع الصدفة الهشة بحرص على العشب، حتى... وانطلقت من اعماقها صرخة رعب مدوية مزقت السكون وذلك بعد ان احتكت وهي تجر نفسها إلى خارج الحوض، بساقين، وعندما حاولت ان تقف، وكل همها هو ان تهرب، انزلقت الصدفة من قبضتها، وبالرغم من الرعب الذي كان يتملكها، سمعتها تنزلق إلى حيث سقطت عائدة إلى الماء.

وفي اللحظة التالية كانت يد تمسك بذراعها بخشونة، «اغطسي واستعيديها.» وكان صوت الرجل الذي أمرها بذلك يفور بالغضب.

فأخذت تقول: «كلا، ارجوك... أنا آسفة...» وهي تتشبث بحافة الحوض ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان حيث انه كان قد دفعها فشعرت بنفسها تسقط عاجزة إلى الخلف.

صعدت إلى سطح الماء وهي تقح وتشهق تلتمس الهواء، وقد التصق شعرها بوجهها حتى اصبحت لا تكاد ترى شيئاً.

كان الرجل والذي بدا عبارة عن خيال أسود يتوعد بالشر، يقف مشرفاً عليها، إذن فقد كان واحد من الخدم على الأقل، قد بقي هنا للحراسة، ولكن كلا، فقد كانت لكنته انكليزية... لا بد انه المستأجر الجديد، لقد كان سكوت مخطئاً إلى حد مخيف.

وإذ اوشك الخوف ان يشل فيليسيا، رفعت بصرها اليه بعجز، ماذا لو سبحت إلى آخر الحوض؟ ولكنها ما ان قامت بنصف دورة، حتى كان يخطو إلى جانب محذراً.

كانت تستحق الطرد لهذا، ما الذي سيقوله جدها حينذاك؟ وعضت شفتها وهي تغالب دموعها، انتهزها قائلاً: «اغطسي. تباً لك.»

ربما لو استعادت الصدفة سيدعها تذهب، فسحبت نفساً عميقاً، ثم غطست في المياه السوداء كالحبر، ومن ثم اخذت اصابعها تتحسس، والانفعال يتملكها، إلى ان شعرت بدوار اخذت معه نجوم حمراء تتراقص امام عينيها ما جعلها تضطر إلى الصعود.

اخذت تضرب الماء وهي تشهق تلتمس الأوكسجين بينما كان هو يحدق اليها بحقد لا يعرف الصفح، وزاد في رعبها شيء ما في جمود ذلك الخيال الأسود، فأخذت ترتجف ثم عادت تغوص مرة أخرى، وهذه المرة وقعت اصابعها على ما كانت تبحث عنه، وهكذا صعدت مرة أخرى وهي تقبض على الصدفة وقد تملكها الارتياح.

وضعتها على حافة الحوض عند قدميه، وعندما خرجت بسرعة وذلك في حاجتها الماسة إلى الهرب، إذا به يمسكها من ذراعها.

فهمست بصوت خافت قد برح به الرعب: «دعني اذهب أرجوك.»

فقال واصابعه تشتد على ذراعها عندما حاولت ان تهرب: «ليس الآن، فأنا لا اسمح للصوص بأن يذهبوا بهذه السهولة.»

صدمتها كلماته رغم خوفها، فتمتمت تقول: «انا لست لصة.»

«كلا؟» وكان صوته يقطر ازدراء، ولكنها رفعت رأسها بكبرياء: «كلا، لست لصة، اذا تركتني اشرح لك الأمر فقط...»

ولكن قبضته اشتدت على معصمها واخذ يجرها خلفه، قائلاً: «تعالي إلى هناك حيث يمكنني ان اشعل النور.»

«كلا، ارجوك.»

وعندما اخذت تقاومه وقد اشتد بها الذعر، انزلقت قدمها المبتلة على القرميد، فكادت تفقد توازنها داخل الحوض خلفها، جارة الرجل معها، ولكنه تفادى ذلك وهو يطوقها بذراعيه ليثبتها في مكانها.

ومن وراء الجلبة التي احدثها خفقان قلبها المرتفع، سمعته يجذب نفساً عميقاً بعد ان أدرك انها في قمة الخوف، وجمد في مكانه لحظة، وكان عليها ان تستمر في المقاومة، ولكن الذعر الذي كان يزداد في نفسها، جعلها ترتجف إلى حد اخذت معه اسنانها تصطك، وهنا سمعته يقول بشيء من الرقة: «اتشعرين بالبرد؟ سأحضر لك كنزة.»

ثم تركها مبتعداً نحو المنزل، وبعد لحظة بدا نور ضئيل في المنزل، فوقفت وهي ترتجف، ثم اخذت سترتها التي كانت خلعتها عند مجيئها، واخذت تقطع الفناء ركضاً، مرغمة ساقيها اللتين اصبحتا كالمطاط على الاسراع.

ولشدة خوفها من ان يمسك بها، تركت الطريق المكشوف ودخلت خلال أجمة إلى حيث كانت وضعت دراجتها البخارية، ارتدت سترتها فوق ملابسها المبتلة دون اهتمام منها بذلك، ثم اخذت تمر بأصابعها المرتجفة خلال شعرها تسوي من شأنه، وإذا بأصابعها تلك تجمد مكانها، قرط اذنها اليسرى.. انه غير موجود، هذان القرطان الذهبيان هما هدية عيد ميلادها الأخير من جدها، وهما أغلى ما تملك ويمثلان عصفورين صغيرين، وها ان واحداً منهما قد ضاع.

تأوهت حزناً، ثم استقلت دراجتها وابتعدت بها وهي لا

تكاد ترى طريقها بسبب الدموع التي فاضت من عينيها.

• • •

«لقد عدت يا جدي.»

صعدت فيليسيا الدرجات، ثم ألقت بكتبها المحزومة برباط من المطاط على عتبة الباب الأمامي، ثم انصتت، ولكن جدها لم يرد عليها.

لا بد انه في الخارج، هذا حسن وهو يعني ان بإمكانها ان تتسلل إلى غرفتها دون ان يراها احد، وستأخذ دوش بارداً طويلاً، فقد يشد ذلك من عزيمتها، ذلك ان الجو الحار قد اساء إلى صحتها في الأيام القليلة الماضية، ما جعلها متراخية فاترة الهمة، وقد نظرت اليها معلمتها بحدة ذلك الصباح في الصف، وهي تقول بشيء من الرقة على غير عادتها، تقول انها ترجو ان لا تكون فيليسيا تشعر بالمرض أو ما اشبه... ذلك لأنها تلتزم الهدوء منذ فترة طويلة.

ربما كانت مريضة حقاً، فهي لا تكاد تنام، ولياليها تمضي بين الأرق والاحلام المزعجة حتى تستيقظ وهي ترتجف لتعاودها في الليلة التالية، ولكنها ما لبثت ان نهرت نفسها غاضبة بأن لا تخادع نفسها، فان ما يتملكها ان هو إلا من تأثير الصدمة التي تملكتها تلك الليلة منذ اسبوع في سومبرا عندما حدث لها ذلك الكابوس.

وعندما اتجهت نحو الباب الأخضر، اذا بمديرة المنزل ماسبيل تخرج منه: «ها انت ذي إذن، يا آنسة فيليسيا.» واخذت تتفرس في الفتاة إلى ان شعرت هذه بالضيق ثم تابعت تقول: «شكلك متغير، هل انت مريضة؟»

آه، وهذه واحدة أخرى، وسارعت فيليسيا تطمئنها بابتسامة: «انني بأتم خير، هل جدي هنا؟»

«كلا، انه في الشرفة الخلفية، ان لديه زائراً.»

«من هو؟»

فهزت مديرة المنزل كتفيها: «لا أدري انهما يتحدثان عن المرجان.»

فتأوهت الفتاة، انه شخص آخر من تلك السلسلة التي لا تنتهي من السواح، والذين بعد ان يكتشفوا شخصية جدها ج.غ. سينكلير العظيم يأتون اليه ليتحدثوا اليه بما يعرفون أو لا يعرفون عن الشعاب المرجانية المنتشرة حول الجزيرة، حسناً، انها فقط ستمر عليه تعلمه بمجيئها، ثم تصعد إلى غرفتها لتغتسل.

وعندما ذهبت إلى الشرفة، كان الرجلان مستغرقين في الحديث، سمعت أولاً لهجة جدها الرقيقة، ثم اجابه صوت آخر... صوت تعرفه حتماً، صوت سمعته منذ ايام قليلة في الظلام عند حوض سباحة سومبرا.

كان الزائر يجلس وظهره اليها، وكل ما تمكنت من رؤيته منه هو ذراع لوحتها الشمس، كانت مدلاة بإهمال إلى جانبه، وشعر كثيف أسود، كلا... لا يمكن ان يكون هو... هذا غير ممكن.

«آه، ها انت ذي يا حلوتي.» قال لها جدها ذلك وهو يراها تقف عند العتبة مترددة.

فقالت متلعثمة: «مر... مرحبا، يا جدي.»

«تعالي اجلسي، يا عزيزتي.»

تقدمت بتردد من جدها مارة بالرجل دون ان تنظر اليه،

ثم انحنت على جدها تقبله على رأسه، جاعلة وجهها متحولاً مدة اطول من المعتاد لكي تتمالك نفسها.

«فيليسيا، هذا هو السيد كارادين... براندون كارادين كما اظنك قلت؟»

«نعم يا سيدي، ولكن يسرني ان تدعوني براند.»

لم يعد لدى فيليسيا شك الآن، ذلك الصوت العميق ذو النبرة التهكمية التي لحتجبت الآن تحت قشرة التهذيب الاجتماعي، مازالت كامنة مترصدة تحت السطح...

«دعني اقدم اليك يا براند حفيدتي الوحيدة فيليسيا.» وبإرادة خارقة، استطاعت ان ترفع بصرها إليه، كانت له عينان رماديتان فضيتان، وبإيماءة مقتضبة للغاية، حياها ثم عاد بسرعة لينظر إلى الصور الملونة التوضيحية الرائعة الجمال في كتاب والدها، والذي كان منشوراً امامه على منضدة منخفضة، وهو يتمتم قائلاً: «هذا رائع، رائع حقاً، ان إعادة نسخها يتلفها نوعاً ما، هذه الصورة مثلاً...» وبعناية بالغة، التقط احدى الأوراق، «لقد تمكنت من ان تعبر فيها عن مقدار الرقة والهشاشة فيها بالضبط، وذلك اكثر مما يستطيع أي مصور فوتوغرافي ان يقوم به.»

تملك فيليسيا شعور ضعيف بالارتياح، هذا إلى احساس ضئيل احمق بجرح في كبريائها، كيف لم يعرفها؟ ولكنها نظرت إلى نفسها بسخرية وهي ترى ان ذلك سهل للغاية وهي بثوب المدرسة الأزرق الفضفاض هذا ما جعلها ولأول مرة مسرورة به، وهو الذي كان يثير اشمئزازها على الدوام، والقبعة البحرية المصنوعة من القش والتي تتدلى حافتها فوق جبينها وخصوصاً هاتان

الضفيرتان الشقراوان اللتان تتدليان على ظهرها، فهل ثمة تنكر افضل من هذا كله؟

انها بأمان تام، وكانا من الاستغراق في الحديث بحيث كان بإمكانها ان تتسل خارجة دون ان يلحظها، ولكن شيئاً ما... لعله الفضول، دفعها لأن تبقى لتراقب هذا الرجل، فمالت إلى الخلف واضعة مرفقها على كرسي جدها ثم اخذت تتأمل براند كارادين بثبات من تحت حافة قبعتها القش.

ما الذي كانت لوريتا قالت عنه؟ انه يبدو من النوع الخطر؟ وهل هذا وجه رجل خطر؟ وبنفس ذلك الخوف الذي كانت شعرت به منذ اسبوع، رأت انه فعلاً رجل خطر، كان له وجه هضيم ووجنتين بارزتين تحت بشرة وجهه التي لوحتها الشمس، وشفتان رقيقتان، لم يكن وجهه وسيماً بالمعنى المتعارف عليه، ولكن كان فيه شيء ما... ربما عيناه الرائعتان واللتان تختفيان خلف اهداب سوداء طويلة وهو يخفض بصره إلى الكتاب يقلب صفحاته بأصابعه الطويلة الحساسة.

وكأنه أحس بعينيها تحدقان إليه، فرفع بصره اليها، فتضرج وجهها احمراراً وحولت نظراتها عنه بسرعة.

وكان جدها يعود إلى الحديث الذي كانت قطعته عليهما بدخولها فيقول: «حسناً، يوجد في هذه المدينة عقارات كثيرة للبيع.»

فتشنج جسدها، عقارات للبيع؟ هل يعني هذا ان براند كارادين ينوي شراء عقار، فيستقر هنا بدلاً من ان يكون مستأجراً بشكل مؤقت؟ وكان جدها يتابع قائلاً: «ولكن

بالنظر إلى ما تتطلع اليه، فمن الأفضل ان تشتري عقاراً.»

«لقد قمت برحلة سريعة إلى ميامي الأسبوع الماضي حيث ذهبت وعدت في نفس اليوم.» وأرغمت فيليسيا نظرها على التركيز على عقدة في خشب الأرضية عند قدميها، بينما كان هو يتابع، «حيث احضرت مزيداً من التفاصيل عن عدة امكنة تستحق الرؤية، ولكنني لست مستعجلاً، ويسرني ان اتلقى منك أي نصيحة بهذا الشأن قبل ان اشتري.»

أخذت فيليسيا تتحرك في مكانها بضيق، فالتفت جدها اليها يقول: «آسف يا حبيبتي إذ نتجاهلك بهذا الشكل.» فتمتمت بشيء ما، وهي تشعر بالسرور لعدم النظر إليها. لكن جدها تابع يقول: «هل لديك أولاد، يا براند؟»

فأجاب بسرعة واقتضاب: «كلا.»

«في هذه الحالة، ربما لا تدرك السرعة التي ينمون بها.»

واجفلت فيليسيا وهو يمسك بإحدى ضفيرتيها. «منذ سنة فقط أو نحو ذلك، لم اسمح لها بقص شعرها الجميل، فماذا فعلت؟ لقد قصت ضفيرة واحدة، وطبعاً كان عليها ان تقص البقية.»

ومن فوق رأسها المنحني، شعرت بهما يتبادلان ابتسامة متسامحة، بينما كان جدها يتابع: «اظن عليها حقاً ان تعود إلى انكلترا لاكمال دراستها حيث انها في السابعة عشرة الآن، ما رأيك، يا براند؟»

وتمنت فيليسيا لو ان جدها لا يسأل عما يخصها، ولكن بصر براند تحول نحوها بنظرة خاطفة، «حسناً ربما معك حق، فقد افادتني المدرسة الداخلية بكل تأكيد، إذ اخرجت المشاغبة مني.»

كان في لهجته المتعالية، والطريقة التي تحدث بها عنها، ما اضاف إلى شعورها السابق بجرح كرامتها، وفكرت مستاءة بأن كل ما عليها ان تقوم به، هو ان تقف وتفضح ما قام به نحوها، وبذلك سيطرد من هذه الشرفة وربما من الجزيرة بأجمعها.

ولكن كل ما قالته هو: «هل أنت متأكد من ذلك، يا سيد كارادين؟» ثم وقفت وقالت تخاطب جدها: «أرجو المعذرة يا جدي، ولكن عليّ ان أجهز مهماتي المدرسية قبل العشاء.»

ثم أومأت للرجل الآخر بتحية باردة، ودخلت البيت بوقار، ولكنها عندما اصبحت في غرفتها، أدركت بأنها كانت ترتجف وكأنها محمومة، وقفت في منتصف غرفتها تتنفس بعمق وكأنها خرجت لتوها من بحر هائج ثم اخذت تكافح في سبيل العودة إلى طبيعتها، مرغمة نفسها على تنظيم كتبها على مكتبها، ثم سحبت كرسياً، ولكن لم يكن ثمة فائدة... فهي لم تستطع ان تركز عقلها على عملها وذلك الصوت العميق يتناهى إلى مسامعها من خلال باب الشرفة المفتوح.

ربما من الأفضل ان تغتسل أولاً، خلعت ثوبها المدرسي ثم ألقت به على السرير وقفت تحت الدوش تاركة الماء البارد المنعش ينهمر فوقها عدة دقائق.

وعندما اخذت تجفف نفسها بالمنشفة، نظرت إلى صورتها في مرآة الحمام، ثم توقفت لتتأمل وجهها بنظرات ناقدة، كان وجهها البيضاوي شاحباً، والهزال يبدو عليه نتيجة الليالي الأرقة، زاد على ذلك الآن الصدمة التي تلقتها

من مواجهة براند كارادين مرة أخرى، كما كانت هناك هالات داكنة تحت عينيها الزرقاوين، بينما فمها الواسع الممتلىء كان مضموماً لشدة التوتر.

وفجأة استدارت تاركة المرآة إلى حيث عادت إلى غرفتها، ولكنها أدركت ان لا فائدة من محاولة الجلوس للدراسة، فهي ستجلس محدّقة إلى كتبها ودفاترها كعادتها كل مساء طوال هذا الأسبوع، ان عليها ان تتمالك نفسها وتنفض عنها هذه الحالة، وذلك بحركة رياضية كالسباحة مثلاً، نعم، هذا سيفيدها حتماً.

ولكنها فقط كانت تتمنى ان لا يكون على الشاطىء احد من المجموعة، فهي لم تكن قد ذهبت إلى الحفلة تلك الليلة، وبدلاً من ذلك رجعت عائدة إلى منزلها، منادية جدها، «لقد عدت يا جدي، وسأصعد إلى غرفتي مباشرة لأنني متعبة.» ثم هربت لاجئة إلى غرفتها قبل ان يخرج إلى الردهة ليحييها... وقد تجنبت المجموعة تلك منذ ذلك الحين غير مبالية بما عسى ان يفسروا اختفاءها هذا...

كانت الأصوات قد تلاشت من الشرفة، ويبدو ان كارادين قد خرج، ولكنها لم تشأ المجازفة بالذهاب لترى، وهكذا ارتدت ثوب الاستحمام، واختطفت الروب المنشفة، ثم اسرعت إلى الشاطىء من خلال الباب الأمامي... وذلك في نفس الوقت الذي كان هو فيه يرتقي الدرجات آتياً من الحديقة، فتصطدم به.

لا بد انها افقدته توازنه لأنه كاد يقع إلى الخلف، فمدت يدها بحركة غريزية تثبته.

«آسفة.»

فقال جدها مستنكراً: «في الحقيقة يا عزيزتي، انت دوماً تسرعين بهذا الشكل.»

«نعم، اعرف هذا يا جدي، سأعود بسرعة.» ثم ألقت بقبلة على رأسه، وأومأت معتذرة بعبوس في اتجاه كارادين، ثم تابعت هبوط الدرجات.

وعندما وقفت لترتدي معطف الشاطىء، سمعت جدها يقول باهتمام: «هل أنت بخير، يا براند؟ تعال أجلس مرة أخرى وسأحضر اليك شيئاً تشربه.»

«كلا، كلا، فأنا في احسن حال.» ولكن صوته كان خشناً. «ولكنها رطوبة الجو فأنا لم اتعودها بعد...»

• • •

عندما عادت فيليسيا، كان جدها جالساً في الشرفة، فقالت: «سأغير ملابسي لأجل العشاء.»

«لا بأس يا عزيزتي، ولكن قبل ذلك، اتصل بنا المفتش غراهام من مخفر كينغستون اثناء غيابك.»

فخفق قلبها بوجل: «آه...»

«طلب ان تتصلي به إلى المخفر بعد عودتك.»

ازدردت ريقها، ولكنها عندما رأت التوجس في عينيه، أرغمت نفسها على الابتسام لتطمئنه. «اظنه علم بأنني لم اقم بواجباتي المدرسية الليلة الماضية.»

وعندما عادت إلى الشرفة متمهلة، كان الظلام قد حل تقريباً.

سألها جدها: «حسناً؟»

فهزت كتفيها دون ان تنظر اليه: «آه، لا شي ذا أهمية

هناك سرقات حدثت في كينغستون في عطلة نهاية الأسبوع وكانت هناك شكاوى، وهكذا رأت الشرطة...» وتبدد صوتها وقد بدت فيه التعاسة.

فسألها بحدة: «وهل كنت متورطة في ذلك؟»

«كلا... كلا بالطبع.» وتقدمت إلى جانبه تضع ذراعيها حوله.

«أواه، يا جدي، معك حق، لا أريد ان ابقى هنا، أريد ان اعود إلى انكلترا.»

وعندما وضعت رأسها على كتفه، كل التعاسة التي كانت تملكتها طوال الأسبوع الماضي انفجرت الآن بشكل شهقات متقطعة عالية.

الفصل الثاني

تكوّمت فيليسيا بجانب مدفأة الغاز، وقدماها تحتها، وكانت زميلتاها في الشقة تتهيئان للخروج، فهي تتطلع مستبشرة إلى أمسية تمضيها وحدها، كانت تحب زميلتيها دايب وليزي ومسرورة بالسكن معهما، ولكنها كانت تعي دوماً انها الفتاة الثالثة والتي تبقى عادة وحدها، وربما كان هذا لأنهما اكبر منها سناً بعدة سنوات، واكثر تجربة في الحياة.

هذا إلى انها بعد حوالي أربع سنوات أمضتها في لندن، لم تتعود ان يكون الآخرون حولها، ولهذا كانت عدة ساعات تمضيها وحيدة، بمثابة فترة سارة.

ظهرت دايب عند العتبة تقول: «كيف كان الحال اليوم؟»

فأجابت فيليسيا كارهة: «اتعنين الامتحان؟»

«وماذا غير ذلك؟ لقد نسفته نسفاً، أليس كذلك؟» وأخذت تتأملها برهة عادت بعدها تقول: «اتعلمين، يا فيليسيا؟ انك فتاة مجنونة حقاً، ذلك ان لك وجهاً وقواماً يكاد يضعف لهما أي مخرج سينمائي، فماذا تفعلين؟ تتسكعين في الانحاء في ثيابك القديمة هذه، وشعرك الرائع مرسل دون نظام، وتكادين تنامين ونظارات الشمس هذه على عينيك، ما الذي تحاولين ان تبرهني عليه؟ اخبريني؟» وهزت دايب رأسها وهي تتمتم اشمئزازاً.

فقالت فيليسيا وكأنها تدافع عن نفسها: «اعلم

هـذا، ولكن التمثيل الجيد يحتاج إلى دراية جيدة بالفن.»

فاندفعت الفتاة تقول: «نعم، ولكنك...» ثم سكتت فجأة.

فأكملت فيليسيا عنها قائلة: «ليس لديّ أي دراية بذلك، ليس بما يكفي على كل حال.» وبدت على شفتي فيليسيا ابتسامة باهتة وهي تقول ذلك.

فقالت دايب بحرارة: «كلا، ليس هذا ما كنت أريد قوله.»

«قد يكون ذلك ولكن هذا ما سيكون عليه الأمر.»

وكان هذا صحيحاً، فمنذ ان انهت دورة دراسة التمثيل، لم يعرض عليها أحد أي دور، عدا عن ظهور بسيط في اعلان عن صابون جديد، لم يترك أثراً ما، ما جعلها تبدأ بفقدان الثقة بنفسها وقدراتها على التمثيل.

أما الأمر الوحيد الذي كانت واثقة منه، فهو ان الأمور ستتحسن معها دون ان تضطر إلى الاستعانة بموارد جدها الزهيدة، لقد كان أصر على القدوم معها إلى انكلترا ليقيما معاً في منزل واحد وذلك إلى ان تنتهي دراستها... ومن ثم دورة التمثيل، ولكنه ما لبث ان اصبح مرغماً، وذلك منذ سنة فقط، على ان يقبل فكرة ان الجو الرطب كان يسيء إلى صحته، وهكذا عاد إلى جمايكا.

حاولت جهدها من خلال الرسائل والاتصالات الهاتفية المتفائلة، ان تقنعه بأن الأمور معها هي على ما يرام، ولكنها عندما عادت إلى الجزيرة لقضاء العيد، بدت بعيدة عن الاقتناع بذلك.

وأخيراً قالت لزميلتها ببشاشة مصطنعة: «حسناً، يا دايب، يبدو أنني سأعود إلى غسل الاطباق في مطعم ليون.»

وما ان انهت كلامها حتى تصاعد رنين الهاتف في الردهة الصغيرة، فهرعت ليزي من غرفتها لتجيب عليه: «آه، مرحباً يا آل.»

وكان آل هو رئيسها في المقهى الذي تعمل به فتأوهت دايب بشكل ذي معنى، ثم عادت إلى غرفتها.

وكانت ليزي تقول بصوت حاد مرتفع: «لا استطيع ذلك طبعاً، فأنت تعلم أن عليّ ان اكون في ذلك المقهى إيزلينغتون الساعة السابعة، فكيف يمكنك ان تظن ان بإمكاني ان اكون في وست الساعة الثامنة؟ كلا، لا اعرف... انتظر لحظة.»

وبدا وجهها من الباب: «هل لديك عمل هذه الليلة، يا فيليسيا؟»

«حسناً، انني...»

«هذا عظيم، اسمعي، هل تعملين معي معروفاً يا حلوتي؟ يريدني آل لمساعدته في وست إند، ولكن الوقت لا يساعدني على الاطلاق.»

فانكمشت فيليسيا وقالت بذعر: «آه، كلا.. لا استطيع.»

«آه، هيا، يا حلوة.» وجلست ليزي على ذراع الكرسي، وهي تقول: «ان فيكي وكارين مريضتان، وهو في منتهى الحيرة، انه يدفع جيداً.»

نظرت فيليسيا إليها بقلق: «لا أريد ذلك.»

«ولماذا لا؟ انه أمر يسير.»

قالت: «ربما بإمكان دايب...»

فقاطعتها ليزي: «انتوقعين منها ان تضحي بأول موعد لها مع سمسار البورصة ذاك، والذي كانت تسعى اليه منذ

اسابيع؟ لا اظن ذلك، آه، أرجوك، ساعديني، ان علاقتي به ستصبح جيدة حقاً، إذا انا تمكنت من تقديم العون له في هذه المشكلة.»

فتملك فيليسيا الذهول وهي ترى الجد البالغ على الفتاة، ربما كانت دايب على حق وهي تلمح إلى شعور خاص لدى ليزي نحو رئيسها في العمل.

فقالت مترددة بين طبيعة الخير فيها، وما تشعر به من توتر: «حسناً... العادة أن تخرجي حالما تنهين عملك، أليس كذلك؟»

«طبعاً، ليس ثمة أي مشكلة في ذلك، آه، شكراً يا حبيبتي.» عانقتها ليزي بشدة، وهرعت إلى الهاتف، وسمعتها فيليسيا تقول: «آل... قضي الأمر.» هذا بينما كان شعور بالتردد يمتلك فيليسيا.

• • •

بعد ذلك بساعة تصاعد صوت بوق سيارة، فرفعت ليزي الستار عن النافذة وقالت: «انها سيارتك.»

«ولكن إلى أين سأذهب؟»

«لا تقلقي فالسائق يعلم عنوان المقهى.»

«ولمن تلك الحفلة التي ستقام هناك؟»

«انه يدعى لازلو... وهي احتفال بذكرى مولده، وهو وكيل مسرحي، وهكذا لا تعرفين ما قد يحدث، فقد تكون هذه فرصتك للظهور أرسلها الحظ اليك فتصرفي بمهارة.» وبعد ذلك قرصتها في خدها بخفة وهي تقول: «اشكرك، لن أنسى لك هذا الجميل.»

وقفت بها السيارة في شارع بوند ستريت، ثم اخذ السائق ينظر في قطعة ورق، ثم قال: «سأنتظر هنا.» وعندما نزلت فيليسيا من السيارة ببطء، التفت اليها قائلاً: «اتريدينني ان ادخل معك يا آنستي؟»

«كلا، كلا، سأكون على ما يرام شكراً.»

ما ان انفتح باب المطعم، حتى تدفقت الأنغام الموسيقية، وسرعان ما استحال تبلل راحتيها بالعرق نتيجة التوتر، إلى موجة عارمة من الذعر، ولكنها أرغمت نفسها على السير نحو الداخل، تقدم رجل يسألها: «هل أنت الفتاة القادمة من عند آل؟»

«نعم.»

«حسناً، فلندخل إذن.»

في داخل القاعة كانت الضوضاء من الإرتفاع بحيث احدثت لها صدمة، وكان اكثر الموجودين يحيطون برجل بدين متوسط في السن، كان يضع بين اسنانه سيكاراً ضخماً، واخترق بها الرجل الجموع هذه متوجهاً إلى حيث مائدة الضيافة، لثبات عملها.

مرت ساعتان وهي منهمكة في عملها دون أن تشعر بمرور الوقت.

حسناً، يبدو ان عملها هذا قد نجح، على الأقل، فقد اتسعت ابتسامة لازلو عندما ربت رجل آخر على ظهره مهنئاً على نجاح حفلته، ان كل ما عليها ان تقوم به الآن، هو ان تخرج بتحفظ، وفي أقل من نصف ساعة، تكون قد أصبحت في بيتها.

ولكن ما ان تناولت معطفها، واستدارت لتخترق الجموع،

حتى أمسك بها رجلان من ذراعيها، وقبل ان تبدأ بالمقاومة، اخذا يؤرجحانها، وهما يصيحان: «أرقصي، أرقصي لأجل لازلو.» وتبعهما الآخرون بالصياح والجميع يصفقون بشكل منغوم وهم يغنون: «أرقصي... أرقصي..»

«كلا... ولكن صرختها هذه خرجت من حلقها ممزقة في همس مختنق، فتراجعت تلتصق بالجدار منكمشة على نفسها ماذا لو صرخت تطلب النجدة؟ ولكن سائق السيارة لن يسمعها، وبسطت اصابعها تحاول دفع هذه الجموع عنها بيأس.

وقفت فيليسيا وقد شلها الرعب وأدار رأسها بشكل لو ان طريقاً شق بينهم لما استطاعت الحركة للهرب منه.

«ارقصي.. ارقصي...» وابتدأ الغناء بهذه الكلمة مرة أخرى وقد خالطه التهديد هذه المرة تقريباً، ونظرت حولها وقد اشعرها العجز واليأس بالغثيان، لم يكن ثمة مهرب.

كان الصمت الآن قد خيم على الجموع، ولكن ضربات الموسيقى الماكرة الخبيثة في رأسها، والضوء المتدفق عليها كانا يصيبانها بالدوار إلى ان اصبحت وراء كل تفكير مترابط مفهوم.

وقفت مترددة وهي تبحث عمن ينقذها، ولكنها لم تجد، عند ذلك، إذا بالباب يفتح لينساب ضوء سقط على الغرفة الصامتة، بينما وقف شخص محدد المعالم بالسواد، عند الباب، توقف الشخص ينظر إلى هذا المشهد، ثم ما لبث ان اجتاز القاعة بعدة خطوات واسعة.

وعلى نحو غامض، رأت لازلو يستدير وسمعته يقول:

«مرحباً، إذن فقد عدت؟ اقد وصلت في الوقت المناسب.» ثم أفسح له الطريق بينما كان الرجل يتقدم نحوها، وعندما اخذت تحدق في وجهه، إذا بالزمن يتوقف لحظة، ثم تبدأ السنوات بالتراجع لتعود بها إلى سومبرا، والرياح تتأوه بين الأغصان والسماء كالحة السواد فوقهما.

عند ذلك، شعرت بالدوار سقطت بين ذراعي براند كارادين.

www.elromancia.com

الفصل الثالث

شعرت فيليسيا وهي لا تكاد تعي ما حولها، بأن براند كارادين يأخذ المعطف من على المنضدة ويضعه على كتفيها.

«هه... ما هذا... عودي إلى هنا...» تصاعدت هذه الأصوات حولهما، بينما كان هو يضع ذراعه حول كتفيها ويشق طريقه بين هذه الحشود المتراصة.»

فلاح وجه لازلو المتوهج امامها: «قف، يا براند، لم يحن وقت ذهابها بعد.»

وشعرت فيليسيا بذراع براند تتوتر حولها، بينما قال بهدوء وقد اطبق اسنانه: «ابتعد عن طريقي يا لازلو، تباً لك.»

وإذ رأى الرجل الغضب الهائل على وجهه تراجع، بينما تابع براند شق طريقه بين الحشود الفاغرة افواهها، نحو الباب.

«قفي والبسي معطفك جيداً.»

القت نظرة من فوق كتفها فرأت لازلو واقفاً عند الباب ينظر اليهما، وبدا لها مثيراً للشفقة نوعاً ما أو لعله الانكماش والتضاؤل، ومرت لحظة شعرت فيها بالأسى لأجله، فمنحته ابتسامة شبه اعتذار، فلم يردها.

ونظراً للتوتر العصبي الشديد والانهاك الذي كانت عليه، فقد كانت تشعر بالدموع على وشك الانهمار، فانكمشت على نفسها وهي ترى توتر ملامحه، مبتعدة عنه قدر امكانها، ثم اخذت تشد المعطف حولها وتربط شريطه حول عنقها،

ولكنها لم تستطع ان تتحكم باصابعها المرتجفة رغم محاولتها ذلك عدة مرات، وكانت تشعر به يراقبها، وأخيراً وبعد ان نفد صبره أزاح يديها جانباً وربط لها الشريط بنفسه وذلك بعنف كاد يشنقها به، وقفت هي محولة عنه عينيها.

قال بصوت خشن: «لماذا هذا؟»

أجابت وهي مازالت تتجنب عينيه: «لا شيء، كنت... كنت افكر فقط. اظننا افسدنا عليه حفلته.»

«من؟ لازلو؟» واطلق ضحكة جافة، «لا تضيعي شفقتك على ذلك النذل، وعلى كل حال، ما الذي كنت تفعلينه هناك؟ ماذا تفعل طفلة مثلك في ذلك المكان؟»

وسرعان ما تبدد الارتياح الذي كانت تشعر به لخلاصها من تلك المحنة حين كان الخلاص مستحيلاً، تبدد ليحل محله الغضب والشعور بالخزي، الخزي من ان هذا الرجل كان هو الذي شهد ما حصل معها من بين كل رجال العالم.

اجابته: «آه، انها قصة طويلة.»

«عندما وعدت جدك بأن أبحث عنك عندما آتي إلى المدينة...»

فقاطعته بلهفة: «جدي؟ هل رأيته؟ ومتى؟»

«الأسبوع الماضي.»

«وكيف حاله؟»

«لا بأس، وهو يا فيليسيا، لا يعرف ما تفعلين هنا، أليس كذلك؟»

اخترقت كلماته اعماقها، حتى كادت تسمع صوت جدها عندما كان يعلم ببعض مشاغبات التلميذة البريئة. وعندما

عضت شفتها حزناً، كان براند يمسك بمعصمها ويجرها إلى الرصيف، وكانت السيارة التي احضرتها مازالت واقفة بانتظارها، وعندما رآهما السائق، تحرك بالسيارة متجهاً نحوهما، فقالت: «ها هي ذي سيارتي، تصبح على خير، يا سيد كارادين، وشكراً.» ولأول مرة هذا المساء، استطاعت ان تنظر اليه محدقة في عينيه الباردتين وهي تقول: «انني حقاً شاكرة لك جداً.»

ولكن عندما وقفت السيارة، لم يحاول براند ان يترك يدها، بل أحنى رأسه وقال للسائق من خلال النافذة المفتوحة: «لا حاجة بك للانتظار فان السيدة قادمة معي.» وإذ جمدت فيليسيا في مكانها، اخذ السائق ينقل بصره بينهما، ثم قلب شفتيه قائلاً: «حسناً، مادامت هذه رغبتكما.»

فقالت متلعثمة وقد تملكها الارتباك: «لا بأس في ذلك... أعني... اعني اننا صديقان قديمان.»

فهز السائق كتفيه بعدم تصديق واضح، ثم تحرك بالسيارة مبتعداً، فاستدارت فيليسيا نحو كارادين وقد ثار غضبها: «اشكرك كثيراً، انك لا شك تدرك انه ظن انني قد تعرفت إليك لتوي لأمضي الوقت معك...»

«حسناً، وماذا تتوقعين غير ذلك؟» ونظر إليها ساخراً، بينما كان هو يسير بها على الرصيف نحو سيارته الحمراء اللامعة والتي كانت واقفة تحت مصباح الشارع، ففتحها وهو يقول آمراً: «ادخلي.»

«وإذا أنا فكرت في الرفض؟»

فقال بنفس الصوت البارد الهادىء الذي استعمله مع

لازلو: «الأفضل ان تفكري في ما يصلح لك.» فدخلت وهي تتوعده في سرها بأن تقاوم عجرفته هذه في وقت آخر، ولكن ليس الليلة، ثم صعد إلى مقعد القيادة بجانبها، وسرعان ما انطلقت بهما السيارة.

«انك تسكنين في كامدين أليس كذلك؟ طريق كوبهام.» إذن، فقد أخبره جدها حتى بعنوانها، وتوارت البقية الباقية في ذلك العرفان بالجميل الذي كان يتدفق في كيانها نحوه، توارت خلف الاستياء والخزي اللذين اصبحت تشعر بهما، وقالت له: «مادمت تعرف العنوان فلماذا تسألني؟» وهكذا أمضت بقية الرحلة تحدّق امامها بصمت، وعندما أوقف السيارة امام شقتها سألها: «أهذه هي؟»

«طبعاً.»

ومن زاوية عينها رأته ينظر اليها بحدة قائلاً: «كفى عبوساً، انني لا احب النساء العابسات.»

«حسناً، في هذه الحالة، ينبغي علينا أن لا يرى بعضنا بعضاً بعد الآن، تصبح على خير.»

وترجلت من السيارة ثم اغلقت بابها خلفها بشيء من الهدوء، واتجهت تصعد الدرجات، ولكنها عندما اخرجت المفتاح من جيب معطفها لتفتح الباب، امتدت يد من خلفها تأخذه منها، إذن فهو مصمم على ان يصل معها حتى باب الشقة! هكذا رفعت جانبي معطفها بيديها ودخلت صاعدة السلم.

من تحت الباب رأت شقاً من الضوء، لا بد ان ليزي عادت قبلها، أو ربما لم تذهب دايب إلى موعدها مع سمسار البورصة، ولكنها عندما فتحت الباب توقف قلبها عن

الخفقان، كان آل، رئيس ليزي في الشركة، جالساً رافعاً قدميه على منضدة القهوة، وبجانبه كوب عصير، فاستدارت تغلق الباب في وجه براند، ولكنه كان خلفها مباشرة فوضع يده على الباب يدفعه.

«مر... مرحباً يا آل.»

«فيليسيا، يا عزيزتي... ها قد عدت، لقد تركت لي ليزي المفتاح خارج الباب، كيف كانت الحفلة؟»

تحركت بضيق وهي تضم المعطف حولها، ثم تقول: «لا بأس» ونظرت بطرف عينها إلى الرجل الواقف بجانبها، فرأت عينيه تضيقان، كان يتأمل تفاصيل ذلك الشاب الأشقر الأنيق ببذلته الرمادية العصرية التفصيل والذي كان جالساً على الأريكة بكل ارتياح، ولكن براند لم يبد نحوه أي اكتراث، ولكن آل كان يراقب القادم الجديد بيقظة.

قالت بسرعة: «اقدم اليك... آل روجرز، انه رئيس ليزي في العمل.»

«أحقاً؟ ما كنت لأتكهن بذلك.» وكان قول براند هذا لا يبعد عن الاستخفاف اكثر من شعرة واحدة، وعندما رأت وجه الشاب يتوهج، اسرعت تقول: «اعرفك يا آل على السيد براند كارادين، صديق قديم... من جمايكا.»

اضافت ذلك كيلا يكون هناك سبيل للشكوك.

«براند؟ هل قلت براند كارادين؟»

وتملكها الذهول وهي ترى آل ينظر اليها فاغراً فمه، ثم انزل قدميه واخذ ينقل نظراته بينهما: «براند كارادين نفسه؟»

فسأله براند ببرود: «وهل هناك غيره؟»

ما الذي كانا يهدفان إليه؟ وجاء الآن دور فيليسيا لتحدق فيهما بارتباك.

وكان آل مايزال يهز رأسه: «شيء لا يصدق... حسناً، انني فخور بمقابلتك يا براند.»

ووقف مادا يده إليه يصافحه، ولكن براند أومأ برأسه محيياً، متجاهلاً اليد الممدودة وبعد فترة صمت محرجة، انزل آل يده إلى جانبه، ثم قال: «ماذا تريد ان تشرب؟» نظر إلى فيليسيا، وتابع: «أنا واثق من ان ليزي لا تمانع في ان نستضيف براند كارادين على حسابها.»

فقال براند: «كلا، شكراً.»

فهز آل كتفيه: «كما تشاء، لم أعلم انك مازلت تعمل في الاستعراضات المسرحية، يا براند، كنت اظنك كدست ثروتك ثم تركت العمل، ولكن اذا كنت تبحث عن مجال للاستثمار، فإن لدي بعض الأفكار التي قد تهمك.»

«لا اظن ذلك.»

اجفلت فيليسيا في داخلها لكلامه الجاف المختصر، ولكن لم يكن من السهل إزاحة آل.

تابع آل كلامه: «انني سأنتقل إلى اعمال تتعلق بتطوير الموسيقى، وقد بدأت بتأليف فرقة موسيقية صغيرة جيدة، انها تضم واحداً يبشر بمستقبل باهر، فإذا كنت تحب ان تأتي معي قبل أن...»

فقاطعه براند بنفس الصوت الخشن البارد: «قلت لك... كلا.»

فأسكت بذلك آل عن الكلام ولكنه قال: «آه، حسناً، لا تقل فيما بعد انني لم اعطك الفرصة، وعلى كل حال، يا

حبيبتي.» قال ذلك مخاطباً فيليسيا، «كنت أمر امام بيتك، ففكرت في ان ادخل واشكرك على مساعدتك لنا هذه الليلة.»

ولأول مرة خطر في بالها ان آل قد دخل فقط لعلمه انها ستعود قبل ان تنهي ليزي العمل الذي ستقوم به، فابتسمت في نفسها ساخرة، ربما عليها للمرة الثانية هذا المساء، ان تكون شاكرة لوجود براند بجانبها.

وكان آل يقول لها: «انني سأعطيك نقودك الآن.» وسحب من جيبه الداخلي محفظة محشوة اخرج منها اربعين جنيهاً وضعها في يدها، بينما شعور بالمذلة والارتباك كان يتملكها وهي تلحظ النظرة الساخرة التي كان براند يرمقها بها.

وكان آل يقول: «وتذكري يا عزيزتي في أي وقت تكونين فيه مستعدة لعمل كهذا، اتصلي بي فقط.»

فقال براند وقد تلاشى من صوته كل أثر للتهذيب: «انها لن تفعل هذا، يا آل، فهذه المرة هي الأخيرة التي تعمل فيها أي شيء ومن أي نوع لأجلك.»

تملك فيليسيا الغضب، ما اشد جرأته، من يكون هو لكي يقول ما عليها ان تفعله أو لا تفعله؟

وقال آل بنزق: «آه، ولماذا؟»

«أولاً، لأنني انا أقول هذا؟»

فقالت فيليسيا وقد ابتدأ غضبها يزداد، وهي تسحق الأوراق النقدية في يدها بعصبية: «والآن اسمع...»

«وثانياً، لأن مثل هذا العمل المنحط لا يناسبها.»

فقالت بغضب: «ما الذي تعنيه بقولك (عمل منحط؟)» ولكنه تابع يتكلم عنها وكأنها غير موجودة: «هل تعلم انه

كان من الممكن ان تقع في كثير من المشاكل هذه الليلة؟ عندما وصلت انا، كانوا قد وصلوا معها إلى حد أرادوا فيه منها ان ترقص لهم بوقاحة.»

فضحك آل قائلاً: «آه، كلا، لا تقل لي ان لازلو قد عاد إلى حيله مرة أخرى، لقد واجهت كارين نفس المشكلة السنة الماضية... ولكن كل ذلك ليس سوى مزاح غير ضار يا فيليسيا.»

وبجانبها سمعت نبرة الغضب تصدر عن براند وهو يقول: «مزاح غير ضار... مع لازلو؟ اتعني انك بينما تعرف سمعة ذلك الرجل الشائنة مع الفتيات، ترسل هذه الطفلة اليه لتواجهه بمفردها؟»

طفلة؟ عمن يتكلم هذا الرجل؟ اخذت فيليسيا تتساءل عن ذلك بينما كان يقول: «حسناً، انها لم تكن وحدها وعلى كل حال يا كارادين، لا اريدك ان تحدثني عن عملي، هل لأنه صادفتك ضربة حظ...»

فالتقط براند معطف الرجل الواقي من المطر، والذي كان ملقى على احدى الكرسي، وقذفه به وهو يأمره: «اخرج.»

فتوهج وجه آل بالاحمرار: «انتظر لحظة فقط.»

«هل تريد ان القي بك خارجاً بنفسي؟»

اخذ آل يقيّم بسرعة بنية جسديهما، ثم هز كتفيه: «لا تقلق فأنا خارج على كل حال، إلى اللقاء، يا فيليسيا، سأراك فيما بعد، تحياتي، يا كارادين وحيث انني قابلتك الآن، فقد اصبحت أفهم ما يعنيه الناس وهم يتحدثون عنك.»

وقبل ان ينغلق الباب الخارجي تماماً، استدارت فيليسيا

وقد فاض غضبها: «كيف تجروء؟ ان هذه شقتي انا، وإذا كان هناك من ينبغي طرده منها فأنا من يقوم بذلك، وسأبدأ الآن معك، اخرج من هنا.»

قطب جبينه قليلاً، ولكن جوابه الوحيد على قولها ذاك هو ان غاص في مقعد بذراعين، مازاد في غضبها.

«ثم كيف تجروء على ان تقول لآل ان هذا كان آخر عمل لي عنده؟ انني سأشتغل كما اشتغلت الليلة، وذلك كل ليلة لو أنا أردت ذلك.»

فقال وهو ينظر اليها بازدراء: «حسناً، لا بد انك كنت مستمتعة للغاية هذه الليلة، ويبدو انك كنت من الابتهاج بقدر ما كان المتفرجون عليه، تقريباً. كما ان دلالك كان يجعلهم غاية في التوتر.»

«آه...» وكادت تختنق لاتهاماته الظالمة هذه، ومع ذلك ربما كانت تبدو كذلك فعلاً، حين وصل وكأن عذابها ذاك لم يكن سوى دلال منها لإثارتهم، ولكن من يكون هو من بين الرجال جميعاً، لكي يجعل من نفسه قاضياً على سلوكها.

قالت: «لمعلوماتك الخاصة، كانت هذه هي الليلة الأولى التي اقوم بها بمثل هذا العمل، وقد قمت به خدمة لزميلتي في الشقة.»

«أحقاً؟»

فازداد غضبها لنظرة عدم التصديق التي رمقها بها، فتابعت تقول مدافعة عن نفسها: «انني اعلم ان الأمور قد خرجت عن السيطرة، ولكن بقليل من الخبرة، سيكون بإمكاني مواجهة أي وضع كهذا مستقبلاً... ومن دون عون منك.»

«حسناً، اخشى يا فيليسيا، ان هذا شيء سيبقى دون اثبات.»

«على كل حال انك لم تخبرني عن صحة جدي حين رأيته.»

«انه بخير كما كنت قلت لك.» وتردد لحظة ثم تابع: «ولكن الارتياح بدا عليه تماماً حين اخبرته بأنني سأرعاك.»

فهتفت برعب: «ماذا؟» واخذت تحملق فيه بذهول دون ان تعرف ما تقول.

«انه قلق لأجلك، كما تعلمين... شابة صغيرة وحدها في لندن، وهكذا إذ كنت قادماً إلى هنا، قلت له إنه مما يسرني أن...»

فقاطعته تكمل له جملته بغضب: «تتجسس عليّ، تفحص اخلاقي، ثم تكتب تقريراً عني إلى جدي، أليس كذلك؟» وضحكت بمرارة: «لا أدري من تظن نفسك حتى تجروْ على ان تحكم على اخلاقي.»

«ما الذي تعنينه بذلك؟»

قال ذلك وقد ضاقت عيناه ما جعلها على وشك ان تبوح بما في نفسها، ولكن يجب ان لا يعلم من هي، وانها هي نفس الفتاة التي قابلها عند حوض السباحة في تلك الليلة المقمرة في سومبرا، فهي لا تحتمل كل ذلك الخزي وتلك المذلة.

وقالت بسرعة تغير الموضوع: «إذن فقد كنت مدعواً إلى تلك الحفلة هذه الليلة، هل انت من اصدقاء لازلو؟»

«ليس صديقاً بكل معنى الكلمة، ففي نوع العمل الذي كنت ازاوله لا يمكن للشخص أن ينتقي معارفه.»

«وماذا كان بالضبط نوع...»

وإذا بمفتاح يدور في القفل، وفي اللحظة التالية كانت دايب تدخل بكل اناقتها وخلفها شاب تبدو عليه البلاهة هتف لرؤيتها: «مرحباً، فيليسيا.»

وعندما تهاوى الاثنان معاً على الأريكة، غاص قلب فيليسيا، ولم تجرؤ على النظر إلى ناحية براند، قالت لها: «مرحباً يا دايب.»

«حسناً، ألا تريدين ان تعرفينا بصديقك؟»

انتفضت فيليسيا وهي ترى عيني الفتاة تتفحصان براند متمعنة بكل تفاصيله، ثم قالت: «انه صديق قديم من جمايكا.»

«أحقاً؟ إذن لديكما الكثير مما تتحدثان عنه.» ثم نهضت تجر رفيقها معها مودعة إياه عند الباب وتشكره على الأمسية. ثم استدارت دايب وصعدت إلى غرفتها.

وقف براند وهو يقول عابس الوجه: «حسناً، غيري ملابسك ثم احزمي امتعتك.»

«ماذا؟» نظرت إليه ذاهلة وقد تجمدت التعابير على وجهها، وتابعت: «ما الذي تعنيه؟»

«أعني ما قلت، انك لن تمكثي في هذا المكان ليلة أخرى.»

فهزت رأسها قائلة: «انني لا اسمعك جيداً، ان هذا بيتي، إلى أين تريدني ان اذهب؟»

«احزمي امتعتك فقط، وسترين.»

فجلست وشبكت ذراعيها على صدرها: «آسفة، ولكنني لن اذهب إلى أي مكان... ولامع أي شخص، خصوصاً معك أنت.»

سألته فيليسيا بشك وهي تنظر بارتياب في أنحاء غرفة الجلوس الفسيحة الرائعة الأثاث لهذه الشقة المسقوفة بالقرميد، سألته قائلة: «لماذا احضرتني إلى هنا؟»

«انها شقتي طبعاً وهي المكان الذي أقيم فيه عندما اكون في لندن.»

فصرخت: «شقتك؟ حسناً، لا أريد البقاء هنا.»

«من الأسف ان عليك البقاء هنا، مؤقتاً على الأقل.» وكأنما أراد ان يثبت كلامه، فوضع حقيبتها على الأرض، ثم نظر إليها بهدوء، وهي تقف بجانب الجدار تحاول عبثاً ان تغطي توترها المفاجيء بنظرات متمردة، قال لها لاوياً شفتيه: «لا تقلقي، يا عزيزتي فيليسيا، انني أعدك بأن تكوني آمنة معي اكثر من أي رجل آخر في انكلترا.»

«أحقاً؟» قفزت هذه الكلمة من فمها بسرعة قبل ان تتداركها بالكبح، «ولكنك... أعني انك اختطفتني واحضرتني إلى هنا... حسناً لن أسكت على هذا...»

ونظرت اليه باستياء وهي مازالت تشعر بالألم في معصمها نتيجة سحبه لها من بيتها إلى سيارته، رغم احتجاجها.

ابتلعت ريقها وقد اذهلتها تصرفات هذا الرجل غير العقلانية، فهو لم يكد يمنحها الوقت الكافي لجمع اشياءها، وتبديل ثوبها وارتداء بنطلون جينز وكنزة.

قال يجيبها باختصار: «بل ستسكتين، لأنك اذا حاولت الهرب...» وسكت وفي عينيه نظرة ذات معنى.

تابعت كلامه: «اظنك ستخبر جدي عما رأيته.»

«شيء كهذا، نعم.»

فتقوست كتفاها، انه يعاملها وكأنها طفلة متمردة في الخامسة، وتملكتها المرارة، لكن كان في صوته نبرة خفية جعلتها تنكمش على نفسها محاذرة غضبه الكامن، وهكذا اقتصرت على ان قالت: «لا يمكنك ان تبقيني هنا إلى الأبد، كما تعلم.»

«قد لا يكون ذلك، إنما حالياً ليس ثمة مشكلة، فاجلسي واعتبري نفسك في بيتك.»

تعتبر نفسها في بيتها؟ في عرين الأسد هذا؟ وتهالكت على اقرب كرسي منها.

جلس في مواجهتها ينظر اليها مفكراً ثم قال: «هل لديك وظيفة عليك ان تذهبي اليها عند الصباح؟»

فترددت: «ليس تماماً، اذا كان لا بد ان تعلم، فقد كنت أنوي البدء بعمل آخر في مطبخ مطعم ايطالي خلف المنعطف القريب من شقتي.»

فرفع حاجبيه مستفهماً: «لقد اخبرني جدك بأنك ممثلة.»

فلوت شفتيها: «حسناً، هذا ما كنت اريد ان اكونها، ولكنني لم أنجح في ذلك بعد، ولكنني سأفعل... نعم، انا اعلم انني سأنجح.» وقالت الجملة الأخيرة بلهجة متمردة.

«اتعلمين انك اخترت مهنة صعبة للغاية.»

فابتسمت بجفاء: «ليس بك حاجة إلى أن تخبرني بذلك، وفي الواقع لقد ابتدأت اظن...» وسكتت فجأة.

«نعم؟»

«آه، لا شيء.» كانت على وشك الاعتراف بالحقيقة... وهي انها قد ابتدأت تواجه حقيقة انها قد لا تكون موهوبة، وانه قد يكون اكثر راحة لها في ان تتخلى عن آمالها تلك

وطموحاتها، ولكنها بدلاً من ذلك، قالت تتصنع العبوس بشكل هزلي: «أراك تتفق مع معلم التمثيل الذي قال: «انني عنيفة اكثر مما ينبغي، وغير مروضة بما يكفي لأكون ممثلة جيدة.»

«آه، يا فيليسيا.» قال ذلك برقة وعندما حدقت اليه وقد أسرها شيء في لهجته، ابتسم لها، كانت هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها مبتسماً حقاً، لقد انفرجت شفتاه المتوترتان عن اسنان بيضاء منتظمة، كما تغضن ما حول عينيه، ما شعرت معه وكأن ضربة وجهها شخص ما إلى معدتها دون إنذار.

وإذ لم تستطع مقاومة الاضطراب الذي شعرت به، نهضت من مكانها ثم سارت نحو النافذة حيث وقفت وظهرها اليه وهي تريح رأسها على يدها، ناظرة إلى الخارج، كانت هذه الشقة تطل على نهر التايمس والأضواء المحيطة به تنعكس على صفحته الحالكة، بينما كانت أضواء السيارات المارة تضيء بين آن وآخر أغصان الاشجار على الضفة المقابلة من النهر.

هناك في مكان ما بعد ذلك الخط البرتقالي من اضواء الشارع البرتقالية، كانت أمضت طفولتها إلى ان عصفت الأحداث التي مزقت تلك الطفولة. فقد ماتت والدتها، وتزوج والدها بسرعة اكثر مما كان ينبغي.

وطبعاً، كان الذنب في ذلك الصدع هو ننبها جزئياً، كما اخذت تعترف فيليسيا ذات العشرين ربيعاً، وذلك على ضوء جديد من بصيرتها، لقد منعها حزنها على والدتها من قبول تلك المرأة الغريبة التي اقتحمت حياتها، وهكذا قابلت

بالعداء أي محاولة لتقربها وتقرب والدها منها عاطفياً، محتضنة تعاستها وحزنها كما تحتضن دميتها.

وعندما اعلن والدها انهم سيهاجرون إلى نيوزيلاند حيث كان شقيقها يملك مزرعة، ضربت هي الأرض بقدمها بتمرد، ما جعل جدها يقدم لها بيته في جمايكا، بكل سرور، ولكن مع كل هذا، لم تستطع ان تتخلص من الشعور بأنها غير مرغوب فيها وانها مهجورة...

اجفلت وهي تسمع صوت براند يقول بلهجة عفوية: «انك اعتدت طبعاً ان تعيشي في هذه الناحية.»

فسألته وهي تنظر في انعكاس عينيه في زجاج النافذة امامها: «وكيف عرفت ذلك؟»

«لقد اخبرني بهذا جدك.» هل كان هناك شيء يختص بها لم يتحدثا عنه هو وجدها.

قالت له: «واظنه حدثك عن حياتي الماضية وطفولتي.»

«بعضه، يا فيليسيا.»

فالتفتت اليه وإذا بها ترى رقة بالغة في ملامحه ما أثار اعصابها، فقالت: «حسناً، وفر عليك هذه الشفقة، وأراك ستخبرني الآن بأنني طفلة مسكينة دون أم وبحاجة إلى الرعاية.»

فلاحت على شفتيه شبه ابتسامة وهو يجيب: «ربما.»

«كلا، لا أريد شفقة من أحد، خصوصاً منك أنت.»

فعادت ملامحه إلى خشونتها المعتادة: «سآخذك إلى غرفتك.»

وحمل حقيبتها ثم تقدمها بالسير في ممر مغطى أرضه بالسجاد النفيس إلى حيث وصلا إلى غرفة ضيوف بدا أنها

نادرة الاستعمال، فقال وهو يشير إلى باب بعيد في الغرفة: «ان حمامك هناك، وسأعود بعد دقائق.»

وعندما ذهب جلست على الفراش، انها تحلم... لا شك في ذلك، لا بد انها ذهبت مباشرة إلى سريرها بعد تلك الكارثة التي حدثت لها في تلك الحفلة، وها هي ذي الآن في خضم كابوس رهيب عاد اثناءه براند كارادين إلى حياتها ليمزقها.

ولكن السجادة تحت قدميها، والخزانة بقربها، كل هذا كان حقيقياً وليس حلماً، وتلك المرآة كانت تعكس صورتها الشاحبة وعينيها المرهقتين...

وعندما عاد براند كانت ماتزال جالسة هناك، وكان هو قد غير ملابس السهرة السوداء إلى بذلة رمادية وكنزة سوداء، وكان حتماً قد وجد وقتاً يستحم فيه وذلك لرائحة الصابون ومحلول بعد الحلاقة الذي كان يفوح منه، وكان يحمل بيده حقيبة أوراق صغيرة وضعها على منضدة الزينة، ثم وقف ينظر اليها قائلاً: «عليّ ان اخرج الآن.»

«تخرج؟ ولكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة الآن.»

«نعم، حسناً ان بعض من اتعامل معهم يسهرون إلى وقت متأخر، كنت أنوي رؤية شخص معين في حفلة لازلو هذه الليلة ولكن...»

وعندما سكت وهو يهز كتفيه تغلب الفضول فيها على ما سبق وصممت عليه من ان لا تظهر أي اهتمام به، فسألته: «وما هو عملك بالضبط؟»

«حسناً، كما كان صديقك آل قال انا اعمل في الاستعراضات، ويمكنك ان تعتبريني ممولاً لذلك.»

وعندما نظرت اليه بتبلد، تابع يقول: «التمويل هو عملي الأساسي، فأنا أمول الاستعراضات... الموسيقى على الأخص... وإذا نجح الاستعراض يكون لي حصة في الربح، انها لعبة مغامرات، ولكنني تمكنت من اقامة واحد أو اثنين في السنوات الأخيرة صادفا من النجاح ما جعلهما يصلان إلى برودواي وكذلك إلى وست إند.»

«إذن فهذا ما كان يعني انك محظوظ.»

«لا يمكنني ان أسمي ذلك حظاً، فقد ابتدأت من لا شيء، بادئاً ببيع الأشرطة والتسجيلات في الشارع وذلك عندما كنت ما أزال في المدرسة، ثم تابعت من هذا المنطلق. وأنا لا اعتبره مجرد حظ عندما ألمس الطاقة الكامنة في المؤلفين قبل أي شخص آخر، ثم أملك الشجاعة لمساندتهم في الوقت الذي لا يهتم احد آخر بتمويل استعراضاتهم.» وحمل حقيبته ثم قال بعد لحظة تفكير: «إذا كنت جائعة، فهناك طعام كثير في الثلاجة.»

«كلا، شكراً، لن أزعج نفسي بذلك.» قالت ذلك ثم خفضت بصرها وقد غطى شعرها الذهبي وجهها بينما كانت تخط على السجادة بطرف حذائها.

فتابع يقول بهدوء: «حسناً، اذا غيرت رأيك، يمكنك تناول ما تشائين من الطعام وقد اتأخر فلا تنتظريني، آه، فيليسيا.» ووقف على عتبة الباب، وتابع: «أرجو ان لا تفكري في الهرب، فقد اعطيت تعليمات لجاكسون ناطور البناية، بأن لا يدعك تخرجين... كما انني طلبت منه ان يمنع أي اتصال هاتفي من هنا إلى الخارج إلى حين عودتي، تصبحين على خير.»

فصاحت به: «تباً لك.» وذلك حين أغلق الباب خلفه، ثم أمسكت بوسادة عن السرير وقذفت بها أرضاً. من تراه يظن نفسه؟ آه حسناً... إنه براند كارادين... وهل هنالك آخر؟ هذا ما كان قاله مرة بصوت له نعومة الحرير ومباهاة الطاووس. وكل من حوله يتصرفون كما ينبغي عليهم... إذ يتراجعون مفسحين له الطريق. ففي حفلة لازلو لم يقم أحد بمجهود حقيقي لكي يمنعه من اخراجها من منتصف الحفلة. وبالنسبة إلى آل، ذلك الشاب الخشن الفظ عادة، فقد خرج بشكل غير محترم رغم أن براند لم يرفع صوته. حتى هي نفسها قد جاءت معه مرغمة. ويبدو أن هذه هي عادته في العمل. فهو يرهب منافسيه في العمل، ويرغم فتاة في العشرين، وأي شخص آخر يقف في طريقه، على الخضوع والاستلام.

حسناً، أتراها ستحني رأسها أمام سلطته؟ كلا أبداً. فليس لديها ما يحملها على الخوف منه، سواء بقيت في بيته أم لا. وبعد... من المؤكد أن تصرفاته معها كانت في غاية الأدب منذ عادا فتقابلا... هذا إذا وضعنا أمر اختطافها جانباً.

في المرات القليلة التي حدث تلامس بينهما، عندما تناول حقيبتها منها مثلاً في شقتها وعندما ربط شريط ردائها عند خروجها من حفلة لازلو... شعرت بأنه كان حريصاً على ان لا تحتك بأصابعه بجلدها... وكأنه كان لا يحتمل لمسها... ومع ذلك فقد كان هو نفسه ذلك الرجل الذي تصرف معها بذلك العنف قرب حوض السباحة في سومبرا منذ ما يقرب من الأربع سنوات.

اختطفت حقيبتها، ثم ركضت في الممر وبهدوء فتحت الباب الأمامي للشقة، ثم انصتت، كان كل شيء هادئاً ما عدا صوت موسيقى خفيف في الشقة السفلى، اغلقت الباب خلفها ثم وقفت لحظة ترتدي معطفها، ثم سارت على اطراف اصابعها نحو السلم، لا تجروء على استعمال المصعد.

ولكن قد يكون جاكسون ذاك جالساً في مدخل الردهة؟ كلا... فسلم الحريق في الناحية الأخرى من الممر هو خيارها الوحيد لذلك، ولكنها ما ان خطت نحو الرصيف المعدني في الخارج حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه امام براند، وذلك في اللحظة التي كان يصعد فيها الدرجات الأخيرة.

وقف لحظة ينظر فيها إلى معطفها وحقيبة ثيابها، ثم هز رأسه ساخطاً: «إلى أين انت ذاهبة؟»

«إلى بيتي.» قالت ذلك مطبقة الأسنان وهي تشدد من قبضتها على الحقيبة، وما لبثت ان اخذت تنظر اليه بعجز وهو يأخذ في رفع اصابعها عن الحقيبة واحداً بعد آخر.

أمسك حقيبتها ثم قادها بهدوء إلى بيته دون أن ينطق بكلمة. وعندما اصبحا في غرفة الجلوس، استدارت إليه قائلة بغضب: «اظن كل ذلك المشهد عن خروجك من المنزل ما هو إلا فخاً للايقاع بي.»

«كلا، على الاطلاق، ولكنني لحسن الحظ تذكرت بعض الأوراق التي احتاجها.»

عند ذلك اقفل الباب الخارجي امام عيني فيليسيا الملتهبتين غضباً، ثم وضع المفتاح في جيبه.

سألته بخوف: «ألست خارجاً إذن؟»

نظر اليها طويلاً متأملاً، إلى ان شعرت بالتوتر إزاء نظراته تلك، ولكن كل ما قاله هو: «اتعلمين؟ لقد اصبحت مصدر إزعاج...»

قاطعته قائلة: «انني مسرورة لذلك.»

«ولهذا اظن من الأفضل أن أؤدي عملي بواسطة الهاتف في مثل هذه الحالة.»

وعندما تهالك على احد المقاعد الوثيرة جاراً الهاتف نحوه، تقدمت منه ووقفت تحملق فيه.

فقال وهو يشير إلى كرسي آخر: «لن أتأخر.»

«كلا، بل سأذهب إلى سريري.» فقال دون ان ينظر اليها: «هذا حسن، اتمنى لك نوماً هادئاً، انني سأعود غداً إلى جمايكا وستأتين معي.»

وعندما نظرت إليه ذاهلة، وقد ملأها الرعب، أشاح بوجهه عنها إلى حيث انطلق يتحدث في الهاتف: «ريتشارد، انني مسرور إذ وجدتك، انا براند... آسف إذ لم اتصل في وقت مبكر. بالنسبة إلى ذلك العرض المسرحي الذي تحاول ان...»

لم تنتظر انتهاء مخابرته، فاستدارت وتقدمت نحو غرفتها بغضب بالغ.

الفصل الرابع

«صباح الخير يا سيد كارادين، انني مسرورة لعودتك، يا سيدي.» قالت الموظفة الشابة في قسم الهجرة في المطار ذلك وهي تبتسم، ثم جعلتهما يمران وحقائبهما دون تأخير.

فألقت فيليسيا نظرة عداء على ظهر براند العريض وهي تتبعه خلال صالة الواصلين، وهي تفكر في ما يلقاه من معاملة خاصة وكأنه شخصية هامة، فهي لم تحظ قط من قبل بمعاملة كهذه اثناء الأوقات التي كانت تعود فيها إلى الجزيرة... فالحمال يبحث عن امتعتهما القادمة على الرصيف المتحرك... ثم يمر بها على الجمرك... وها هو ذا الآن شاب أنيق يسرع، متوجهاً نحوهما، وهو يقول: «صباح الخير يا سيد كارادين، ان الشيفروليه السوداء في الانتظار في الموقف.»

وعندما ناول المفاتيح لبراند، تحولت عيناه نحو فيليسيا ليرحب بها ثم اتسعتا وقد عرفها: «ماذا؟ فيليسيا؟»

فحدقت إليه ثم ارتسمت ابتسامة حارة على ملامحها المتوترة: «سكوت! ما اجمل ان أراك. كيف حالك؟»

«آه، بأتم خير.» وسرعان ما استوعب تفاصيل شكلها ليتابع قائلاً: «تبدين رائعة يا فيليسيا.»

فاحمر وجهها سروراً حتى انها ابتسمت تغيظه: «شكراً ولكنك لا تبدو سيء المظهر، أنت أيضاً، كيف حال الجميع؟»

ولكن قبل ان يجيب سكوت قال براند باقتضاب: «أعذرنا.» ثم قبض على مرفقها وجرها بحزم مبتعداً معها.

ولكنها هتفت من فوق كتفها قائلة بتحدي لسكوت الذي كان ينظر إليهما متأملاً: «سنتقابل حتماً أثناء وجودي هنا.»

وعندما اصبحا خارج المطار، وقفت وقالت بحزم: «دعني أذهب... ثم هل لك ان تكف عن معاملتي وكأنني مجرمة؟» ونفضت ذراعها من يده وهي تحملق فيه عابسة، ولكنه لم يقل شيئاً، بل ابتسم متفكهاً. وبينما شعرت بنفسها وكأنها قطه تتقافز فوق قرميد حار، كان هو هادئاً إلى حد يثير الغيظ، ولكنه في النهاية كان دوماً الفائز، فقد ربح تلك المعركة التي احتدمت في منزله في لندن والتي انتهت باستسلامها... مؤقتاً كما عاهدت نفسها، حينذاك.

أما الآن وهي تصعد إلى السيارة الفارهة السوداء بصمت، اخذت تحدق إلى الأمام بينما الحمال يضع حقائبهما في صندوق السيارة.

سار براند بالسيارة حتى وصل إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة. ما اجمل كل ما يمر بها، وبالرغم من مزاجها السيء، فقد لاحت على شفتيها ابتسامة صغيرة، لقد كانت هنا في إجازة العيد ومع ذلك كانت نسيت، ككل انسان آخر، مبلغ ما عليه الجو الدافيء من جمال، وما عليه السماء من تألق، والألوان، وشذا الأزهار والنباتات... وشيئاً فشيئاً، ودون ان تشعر، أخذ الغضب الذي أثاره في نفسها هذا الرجل الجالس بجانبها بتحايله عليها واستعمال قوته في حملها على الإذعان لما يريد، وخوفها من أن يخبر

جدها بأمرها، كما قال، كل ذلك اخذ يتبدد إزاء ابتهاجها بالعودة إلى بيتها.

وقبل ان تقف السيارة تماماً امام بيتها، كانت تقفز منها راكضة نحو الباب.

«جدي.»

فتح الباب الضخم وخرجت منه مايبيل مديرة المنزل وقد بدا الانهاك على وجهها وانتفخت اجفانها.

«آه، يا حبيبتي...» قالت هذا وهي تنفجر في نشيج مرتفع، شعرت فيليسيا بالذعر يخنقها وهي تصرخ: «ماذا هناك؟ هل هو مريض؟ لا بد أن أراه.»

ولكن عندما اخذت تدفع المرأة وقد جن جنونها، إذا بيدين تمسكان بها.

«دعني اذهب اليه تباً لك.» وخلصت نفسها من قبضة براند، ولكنها عندما رأت النظرة التي تبادلها مع مديرة المنزل، رفعت يديها إلى أذنيها صارخة: «كلا.» وتوالت صرخاتها: «كلا، كلا، كلا.» وكأنها وهي تنكر ذلك تريد ان تجعله غير حقيقي، وعندما تخلخلت ركبتاها تملكتها دوامة من الدوار اغرقتها في ظلمة حالكة.

• • •

فتحت عينيها وحاولت ان تنهض، وعند ذلك أدركت انها ترقد على فراش فعادت تسقط على الوسادة مرة أخرى، عندئذ سمعت حركة خفيفة وصوتاً رقيقاً يقول: «فيليسيا... كيف حالك يا فتاتي العزيزة؟»

كان الدكتور جون باريت، والذي تعرفه منذ طفولتها،

كان جالساً على كرسي خيزراني بجانب فراشها، وعندما رفعت بصرها إليه أمسك بيدها يربت عليها: «كيف حالك؟»

فأجابت بصوت خافت كئيب: «لا بأس.»

فشد على يدها وهو يقول: «هل أطلب من مايبيل ان تجلس بجانبك، أم تفضلين ان تأتي السيدة بيلي؟ لقد اتصلت هاتفياً منذ فترة وهي ستأتي إذا كنت تريدينها.»

كانوا جميعاً في منتهى العطف والحنان، فاغرورقت عيناها بالدموع وأشاحت بوجهها وهي تعض شفتها.

«لا ضرورة لأن تطلب أحداً.»

كان هذا صوتاً آخر، فنظرت حولها وإذا بها ترى من خلال دموعها، براند. كان متكئاً على جانب النافذة، وقد شبك ذراعيه على صدره، فاستقام في وقفته واقترب من السرير ولكنه لم ينظر اليها.

«انها لن تكون وحدها فأنا سأبقى هنا معها.»

«حسناً، في هذه الحالة...» واخذ الطبيب ينقل نظراته بينهما، ثم وقف واخذ ينظر اليها: «الآن، كوني فتاة عاقلة وحاولي ان تنامي، وسآتي لزيارتك مرة أخرى غداً.»

وربت على ذراعها ثم ابتعد، ولكنها ما ان اغمضت عينيها، حتى سمعته يقول بصوت خافت: «سأترك هذه معك.» وسمعت خشخشة خفيفة: «حاول ان تقنعها بأن تتناول اثنتين منها... فهي ستساعدها على النوم.»

ثم سمعت وعيناها مازالتا مغمضتين، حركة خفيفة حين جلس براند على الكرسي، ثم صوته وهو يقول بحنان بالغ: «فيليسيا.»

مس الحنان في صوته مشاعرها، مبدداً كل غضبها منه،

فهمست تهمهم: «هممم...» ثم عضت على اصابعها عندما انفجرت من اعماقها شهقة حادة.

«آه، انا آسفة.» ثم اخذت تبكي وهي تحاول إخفاء ما تشعر به من عذاب، وفي اللحظة التالية شعرت ببراند يقف ليجلس على حافة سريرها يواسيها، فقالت بصوت خافت: «كلا، لا أريد ان أبكي.»

كانت تمنع نفسها من ذلك بحزم، مجاهدة لكي تتمالك نفسها، ولكنه قال بسرعة: «كلا، يا فيليسيا.. إبكي. اخرجي هذا كله من نفسك.» وشد على يدها بقوة، وسرعان ما اندفعت في بكاء عنيف.

أخيراً جفت دموعها وهمد جسمها ما عدا رجفات متفرقة اخذت تنتابها، فأخذ ينظر في وجهها برزانة: «اتشعرين بتحسن؟»

فأومأت بخفة، عند ذلك اخرج من جيب بنطلونه منديلاً مطوياً واخذ يمسح به دموعها، وهو يقول: «يجب ان تحاولي ان تنامي قليلاً، لقد قال الطبيب...»

فقالت بعنف: «كلا، اريد ان أعرف... اخبرني يا براند، ارجوك، كيف حدث هذا؟» وكان صوتها يرتجف بشكل خطير.

فتردد لحظة، ثم قال: «أمس صباحاً ذهب بزورقه إلى الشعاب حيث أخذ بالغوص، وعندما احضر من القاع شيئاً من المرجان، أمضى فترة العصر في رسمها، وهذا الصباح عندما ذهبت مايبيل إلى غرفته وجدته قد رحل بسلام اثناء نومه.» وأمسك يدها في يده مواسياً: «انه لم يتألم، يا فيليسيا، كلا أبداً، وعليك ان تثقي بهذا.» وعندما تدفقت

الدموع من عينيها مرة أخرى، نظر إليها بحزن ثم تابع يقول: «لقد رحل بعد رحلة إلى الشعاب المرجانية، وبعد أمسية امضاها في الرسم، حسناً، لقد مات كما كان يتمنى، لو كان امامه الخيار.»

فقالت وقد جعلها التوتر تعبث بأزرار قميصه: «ولكن... ولكنك اخبرتني بأنه كان قلقاً لأجلي.»

فلاحت شبح ابتسامة على شفتيه: «اتعنين لانك فتاة مشاغبة عنيدة صعبة القياد؟» ولكنه عندما رأى التعبير الذي بدا على وجهها سارع يقول: «كلا، يا حلوتي، يجب ان لا تفكري أبداً، على الاطلاق، بأن لك يداً في الاستعجال على موته.»

سكت لحظة مرة أخرى ثم عاد يقول: «كان يعاني من قلبه منذ فترة، وقد كان الدكتور باريت قد أنذره بأن لا يعود إلى الغوص، ولكن هل يمكنك ان تتصوري ان هناك من يستطيع ان يقول لجدك ج.غ. سينكلير كلاماً كهذا؟» وارتجفت شفتاه لحظة: «انه لم يسمح لأي انسان بأن يخبرك بذلك، فقد كان يكن لك ابلغ الحب، كما تعلمين... وكان يتحدث عنك طوال الوقت، وفي آخر مرة رأيته فيها، اخبرني بأنك نور حياته، وأنا أعلم انك جعلته سعيداً جداً.»

«رغم انني مشاغبة عنيدة صعبة القياد؟» ولاحت على فمها شبح ابتسامة: «شكراً لقولك هذا لي، يا براند.»

«يجب ان تنامي الآن، سأحضر اليك إحدى حبوب الدكتور باريت.»

«كلا ارجوك، سأنام بدونها، ولكنني...» ونظرت إليه وقد توتر فمها: «لا أريد ان اكون وحدي، أرجوك ان تبقى معي.»

أجابها بثقة: «آه، يا فيليسيا، طبعاً سأبقى معك، وقد اخبرت الدكتور بذلك، سأستدعي مايبيل لتبدل لك ملابسك.» وقبل ان تحتج قائلة ان بإمكانها القيام بذلك بنفسها، كان قد خرج.

وعندما عاد كانت مستلقية على ظهرها في قميص نوم قطني أبيض، وبنظرة ناعسة، ابتسمت له، ولكنه لم يبادلها الابتسام، وإنما نقل الكرسي بعيداً عن السرير ثم جلس عليه.

انقلبت على جنبها إلى ناحيته تنظر اليه باسمة بحزن، ثم أغمضت عينيها.

* * *

«وداعاً، وشكراً لقدومكم.»

اخذت فيليسيا تودع مجموعة أخرى حضرت الجنازة، ثم استدارت داخلة المنزل والحزن يسود ملامحها.

كان اكثر المعزين قد ذهبوا، ولم يبق سوى القليل ممن كانوا يتمتمون بكلمات التعزية ليخرجوا بعد ذلك. عادت إلى غرفة الاستقبال الفسيحة والتي نادراً ما كانت تستعمل في حياة جدها، ولكنها الآن اصبحت، بفضل جهود مايبيل، مصقولة الأرضية متألقة بالأزهار، وعادت بأفكارها إلى مثوى جدها الأخير والمطل على البحر الكاريبي الذي كان يعشقه، وبسرعة استدارت إلى الباب المفتوح.

كان جيم وزوجته سوزان، اقدم صديقين لجدها في الجزيرة، كانا جالسين على الشرفة في الخارج، وكان براند معهما، فوقفت في الظل متظاهرة بأنها تنظر اليهم جميعاً، ولكنها لم تكن في الحقيقة ترى سواه.

لم تكن قد رأته منذ يوم وصولهما من السفر، ذلك انها عندما استيقظت كان هو قد ذهب، تاركاً لها ورقة كتب لها فيها بأنها اذا أرادت شيئاً فلترسل بطلبه. لقد حدقت عند ذاك، في تلك الورقة وقد ساورها شعور غريب بالوحشة... ولكن حتى قبل ان تدرك ان سوزان جاءت لتهتم بكل شيء، كانت تعلم انها ما كانت بقادرة على ان ترسل بطلبه.

«فيليسيا، يا عزيزتي.»

عادت إلى الغرفة لتوديع المزيد من المعزين، ثم وقفت وحدها لأول مرة ذلك النهار وقفت تحدق بنفسها في المرآة المستطيلة التي امامها، كانت ترتدي ثوباً من الكتان فيروزي اللون غير مناسب للجنازة، ولكنها تعمدت ارتداءه لأن جدها كان يحبها دوماً في هذا اللون... لون البحر، ولكن جمال اللون لم يستطع ان يخفي توتر شفتيها والهالة الداكنة حول عينيها.

ربما، عندما يذهبون جميعاً، ستتمكن من الذهاب إلى الشاطىء لقضاء ساعتين، فتأخذ في لملمة خيوط حياتها مرة أخرى، وهكذا استقامت في وقفتها ثم سارت خارجة إلى الشرفة.

«آه، هذه انت يا فيليسيا.» قال جيم بيلي ذلك وقد بدا قاسياً على غير عادته، وذلك في البذلة القاتمة اللون، وسألها باسماً: «هل ذهب الجميع؟»

«نعم.»

كانت تنظر إليه وحده، ولكن كل خلية في جسمها، كانت مشدودة إلى الرجل الآخر، سمعته ينهض واقفاً، فاستدارت نحوه ببطء، وللحظة اخذا يتبادلان النظرات بصمت، أدركت

انه هو أيضاً، كان يبدو وكأنه لم ينم جيداً، فقد كان وجهه الذي لوحته الشمس، شاحباً، وملامحه اكثر حدة من قبل.

قال لها وهو يصافحها: «الوداع يا فيليسيا، إذا احتجت أي شيء...»

فقاطعته بعنف: «شكراً، ولكنني سأكون على مايرام.»

«آه، لا تذهب الآن يابراند، اذا لم يكن لديك مانع.» قال له جيم ذلك وهو يقف، وإذ نقلت فيليسيا نظراتها بين الاثنين، رأت براند يعبس قليلاً، ثم يهز كتفيه: «طبعاً.»

وكأنما كانت سوزان تنتظر هذه الكلمة لتنهض واقفة بجسمها البدين، قائلة: «سأذهب أنا إذن.» تقدمت نحو فيليسيا وضمتها بين ذراعيها قائلة: «والآن تذكري يا حبيبتي، إذا احتجت إليّ ليس عليك إلا ان تتصلي بي هاتفياً. ألا تريدين أن تأتي إلى بيتنا لقضاء عدة ايام، على الأقل؟» يا للعزيزة سوزان ما أرق قلبها، وابتسمت لها سوزان، قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «شكراً، يا سوزان، ولكنني بخير، صدقيني.»

وقف الثلاثة إلى ان ذهبت سوزان، ثم تنحنح جيم، وقال: «حسناً، يا فيليسيا، ربما الأفضل ان ندخل إلى الغرفة.» وعندما نظرت إليه بتبلد، اضاف يقول برفق: «سأقرأ الوصية، يا عزيزتي.»

«آه...» لقد كانت نسيت تماماً ان جيم بيلي، كما كان صديق جدها سنوات طويلة، فهو أيضاً محاميه، فقالت: «آه، نعم... فلندخل.» اثناء سيرها امامهما إلى غرفة الاستقبال، سمعت براند يقول شيئاً بصوت خافت، فيجيبه جيم: «نعم، يا براند، انني أريدك هنا.»

جلسوا جميعاً إلى المنضدة القديمة الرائعة الجمال والمصنوعة من خشب الماهوغني الرجلان على الجانبين، وفيليسيا في الوسط ما يجعلها تنظر فقط إلى جيم، اخذت تنظر اليه وهو يسحب من جيبه الداخلي ورقتين ثم يفتحهما وينشرهما امامه، ثم يخرج نظاراته ويضعهما على عينيه.

ساد الصمت لحظة في الغرفة، وإذا بها على الفور تشعر بشيء ما... توتر بسيط لا يكاد يلحظ، ثم اخذ يتزايد وعندما نظرت من تحت اهدابها إلى براند، رأت انه كان ينقر باصابعه الطويلة على المنضدة، وكأنه هو أيضاً كان يشعر بنفس التوتر، ولكن من المؤكد ان جدها لم يترك الكثير خلفه...

وابتدأ جيم يقرأ الوصية: (أولاً، لأجل مديرة منزلي المخلصة والتي خدمتني سنوات طويلة، مايبيل دولوريس ويلموت...)

هذا حسن، ولاحت ابتسامة ضئيلة على شفتي فيليسيا، كانت تنوي ان تعطي مايبيل قدر إمكانها، ولكن من الأفضل ان الجد قد ترك لها ذلك رسمياً.

(... عشرة آلاف دولار).

واستطاعت فيليسيا، بشكل ما ان تكبح صرخة ذعر كادت تفلت من بين شفتيها، من المؤكد ان أراضي جدها لم تكن جميعها تساوي هذا القدر من المال، ولكنها بقيت صامتة تنتظر البقية، وذلك لكي تتأكد من أن رغباته..

(ولأجل براند كارادين أترك الرسوم الأصلية من كتابي والتي كانت محط إعجابه.)

إذن فهذا هو السبب في ان جيم قد أراده أن يبقى هنا، وللحظة واحدة عادت بها الذاكرة إلى ذلك اليوم، منذ أربعة اعوام حين رأته هنا مستغرقاً في رؤية الرسومات والتي جعلته لحسن الحظ لا يكاد يلحظ التلميذة ذات الضفيرتين.

والآن نظرت إليه مباشرة لأول مرة وهي تبتسم له بحرارة، قائلة: «ما اشد سروري، يابراند، فقد كان يعلم مبلغ اعجابك بتلك الرسوم.»

(ولحفيدتي المحبوبة فيليسيا ناوتون، أترك البيت والذي سيبقى دوماً ملجأً لها... وبقية املاكي.)

اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى، وأخذت تحدق إلى المنضدة، بينما كان براند يسأل: «وكم يبلغ ثمن ذلك، يا جيم؟»

لم يكن هذا من شأنه، في الواقع على الاطلاق، كما اخذت فيليسيا تفكر وهي ترفع نظرها وقد توهج وجهها حنقاً، عندما اجاب جيم: «حسناً، ليس لديّ بالطبع الرقم الصحيح تماماً، ولكنه حوالي الربع مليون.»

«ماذا؟ هذا مستحيل.»

«اظنه بالدولار الجمايكي.»

قالت هذا وبراند معاً في وقت واحد، ولكن جيم أجابه: «نعم.»

فتابع براند: «وبما ان الدولار مرتبط بالعملة الأميركية فهذا يعني ما يقرب من المئتي جنيه.»

فرفعت فيليسيا صوتها تقول: «ولكن لا بد من الأمر خطأ ما، فجدي لم يكن لديه مال كثير، انني اعلم انه دفع نفقات دراستي ولكنه...»

فقال جيم: «ان جدك لم يكن يحب الحياة المترفة، هذا صحيح، ولكن ذلك لأنه كان يفضل توفير أمواله... لأجلك، يا عزيزتي.» فحدقت فيليسيا اليه شاعرة بغصة، وهو يتابع: «لقد اعيد طباعة كتابه عدة مرات، وما زال البيع يدر عليه مالاً كثيراً، كما اعتقد، كما أنه كان يراقب اسعار البورصة على الدوام... وذلك منذ عشر سنوات، أي حوالي الوقت الذي جئت فيه للعيش معه.»

«ولكن... لم يكن لدي أدنى فكرة.»

فقال باسماً: «كلا، فقد كان جدك يريد ذلك، إذ انه رغم تساهله معك إلا انه كان يريدك ان تعتمدي على نفسك في حياتك، وذلك لعدة سنوات على الأقل، ولكن الآن بعد ان...» وسكت.

فقالت فيليسيا بصوت أبح: «لقد فهمت جيداً... وشكراً لك، يا جيم. والآن إذا لم يكن ثمة شيء آخر...»

«إنني لم انته بعد تماماً يا فيليسيا، وتنحنح مرة أخرى، هنالك فقرة ثانية.»

«أتعني وصية أخرى؟»

«حسناً، كلا...» قال ذلك بلهجة غريبة وهو يعبث بالورق بين أصابعه.

وعاد ذلك الشعور الغامض بالتوتر يتملكها، فقالت تستحثه: «حسناً، تابع كلامك.»

«انك ستبلغين الواحدة والعشرين، وهو سن الرشد، بعد خمسة أشهر.»

«هذا صحيح، في الثانية والعشرين من شهر آب (اغسطس).» وقطبت جبينها، وما دخل ذلك في الأمر؟

ولكن اساريرها ما لبثت ان انبسطت وهي تقول: «آه، طبعاً لا يمكنني أن أرث شيئاً قبل ان ابلغ سن الرشد، أليس كذلك؟»

«حسناً، ليس بالضبط.» ومازالت لهجة جيم تنبىء عن ضيق بالغ: «يجب ان تفهمي ان جدك كان شديد الاهتمام بك، يا فيليسيا، وطالما لام نفسه على تدليلك إلى هذا الحد.» وألقى نظرة سريعة على براند، رأى اثناءها نظرة ساخرة في عينيه: «ولهذا كان قلقاً مما قد يحدث دون ان يكون هناك من يرعاك... على الأقل إلى حين بلوغك سن الرشد، ولهذا...»

فسألته وقد فرغ صبرها: «ولهذا؟»

«لهذا إلى أن تبلغي الواحدة والعشرين، فقد عيّن براند كارادين ليكون الوصي القانوني عليك.»

الفصل الخامس

«ماذا؟»

تكلم الاثنان معاً مرة أخرى، ثم نهضت فيليسيا واقفة فسقطت الكرسي خلفها على الأرض، وقد انتقلت عيناها من براند، والذي كان يبدو عليه نفس الفزع الذي بدا عليها كما شعرت، إلى جيم.

صرخت: «هذا غير صحيح، لا يمكن ان يكون هذا صحيحاً.»

«حسناً، يا فيليسيا والآن.» كان يقف هو أيضاً وكأنه متلهف إلى الخروج قبل هبوب العاصفة. «كنت أعلم ان هذا لن يعجبك كثيراً، ولكنه كان في منتهى الصلابة والعناد بهذا الشأن.»

«متى كتب تلك الفقرة؟»

«آه، منذ حوالي العام، حالما عاد إلى جمايكا وابتدأ الطبيب يقلق بشأن صحته.»

«ولكن لماذا براند كارادين بالذات دون غيره؟»

قال براند بجفاء: «نعم، هذا صحيح، لماذا أنا بالذات؟»

«حسناً، أنا أعلم ان سينكلير كان يكن لك اعتباراً كبيراً...»

فصرخت شاكية: «ولكن اذا كان ينبغي ان يكون لدي وصي، فلماذا لم يكن أنت؟ فأنت اقدم اصدقائه.»

فمط جيم شفتيه: «نعم، ولكن جدك كان دوماً يصرح انه

يظن انني وسوزان قد دللنا بيري بشكل سيء بعد ان قتل والداها. وعلى كل حال، ربما ظن انك ستكونين افضل حالياً مع شخص أصغر سناً... لكي... يهتم بك.»

«لا اريد هذا، فهو يعني انني مازلت طفلة.»

«حسناً، انك تعلمين انه دوماً كان يعتبرك كذلك، يا عزيزتي، ولكن ذلك سيكون لوقت قصير فقط. وبعد، ماذا تكون خمسة اشهر؟ انها اقل من نصف سنة.»

نصف سنة؟ وارتجفت لهذه الفكرة، ان ذلك أشبه بنصف الحياة، مع ذلك الطاغية الذي لا يحتمل، مسؤولاً عنها، صحيح انه كان رائعاً معها، فساعدها اثناء الصدمة التي تملكتها حين وصولها، ولكن أي شخص غيره له قدر ضئيل من الاحساس، كان سيفعل مثله، والآن وقد امتلك الحق في ان يعاملها كما يشاء، فسيعود على الفور إلى طغيانه السابق.

اثناء ليلة واحدة فقط في لندن... تملكها الألم وهي تتذكر معركة الإرادات غير المتكافئة تلك التي حدثت بينهما في شقته... لقد حصلت على عينة مما سيكون عليه سلوكه معها بالضبط، وكان ذلك عندما كان جدها طلب منه فقط ان يراقبها، ولكن الآن والقانون بأجمعه يسانده...

وسأله براند: «هل تذكر الوصية ما عليّ ان اقوم به بالضبط اثناء الوصاية؟»

«نعم، انها تذكر ذلك، ان لديك السيطرة الكاملة على شؤون فيليسيا المالية.»

فصرخت فيليسيا: «ماذا؟»

«وأنت مسؤول كلياً عن حسن اخلاقها.»

«حسن اخلاقي؟»

استدارت عينا فيليسيا نحو براند فرأته متجهم الوجه وقد توترت شفتاه، لو ان جدها كان يعلم...

احست بالغضب يغلي في اعماقها، وعادت تلتفت إلى جيم بسرعة، فقال لها وهو ينظر اليها بعينين شبه ضارعتين: «حاولي تهدئة اعصابك يا عزيزتي، ولا تسببي أي ازعاج أو تعترضي على رغبة جدك.»

«لماذا؟ ماذا يحدث لو لم افعل؟»

«حسناً، ان تلك الوصية ستكون بتصرف براند، ولكنني اعلم ان الأمر لن يصل إلى هذا الحد.»

قال ذلك وهو يجمع أوراقه، ثم حياها وخرج هارباً. انتظرت إلى ان تلاشى صوت وقع قدميه، ثم تحولت إلى براند والذي كان مايزال يجلس ذاهلاً، فسألته: «هل كنت تعلم عن الوصية قبل الآن؟»

فانطلقت منه ضحكة قصيرة جافة: «ماذا تظنين؟ اتتصورين لحظة واحدة انني كنت سأوافق على هذا المشروع الجنوني؟» وأخذ يتخلل شعره الكث بأصابعه وهو يقول: «هذا غير ممكن... انه مستحيل.»

«في هذه الحالة دعنا ننسى الوصية، أليس كذلك؟ اسمع، ان بإمكاننا فقط أن نتظاهر...»

فقال لها بخشونة: «لا تكوني حمقاء، لقد ائتمنني جدك على هذا، وسأبذل جهداً كبيراً لكي انفذ رغباته.»

فقالت بحدة: «نعم، ولكن ألن تستمتع بذلك؟»

«كلا، في الواقع.» ولكنه لم يقل ذلك بغضب.. كما لاحظت بل بسأم بالغ وكأنه يدرك ثقل هذا العبء على كتفيه. هذا حسن في الحقيقة، ما دام هذا شعوره نحو ذلك...

فقالت تتملقه وهي تتقدم بكرسيها نحوه مقدار نصف إنش: «ولكن من المؤكد اذا كان بإمكاننا الوصول إلى اتفاق بيننا، لا حاجة لأحد بأن يعرفه.»

فقال وقد توترت شفتاه: «انا سأعرف.»

«حسناً، في هذه الحالة فنحن ملتصقان ببعضنا البعض، أليس كذلك؟ ثم انها كما قال جيم، مجرد خمسة اشهر.» ولكن براند لم يرد عليها، بل بقي يحدق في المنضدة عابساً، وهكذا تابعت تقول: «على كل حال عليك ان تعود إلى انكلترا في أي يوم، كما اظن.»

كان هذا هو الضوء الوحيد أثناء الخمسة اشهر التالية، وكانت قد سبق وقررت حتى قبل ان يحدث هذا كله، على أن تبقى هنا فترة تراجع فيه أمر مستقبلها.

قال: «كلا.»

«آه، اتعني انك ستبقى في جمايكا؟»

كان في لهجتها من الكرب ما اخترق افكاره المظلمة، لأنه نظر اليها متأملاً وجهها، ثم ابتسم بعبوس: «اننا كما قلت بنفسك، ملتصقين ببعضنا البعض، يا عزيزتي فيليسيا، فأنا أعيش هنا الآن أغلب الوقت على الأقل.»

«أنت تعيش هنا؟»

فقال: «نعم، فقد اشتريت منزلاً في خليج فرنتشي.»

إذن فهو لم يعد يقيم في... سومبرا.

«آه، نعم طبعاً لقد تذكرت الآن، ففي... في ذلك اليوم، في اليوم الأول الذي تعارفنا فيه.» ومرة أخرى حولت عينيها عن عينيه. «كنت تتحدث مع جدي عن شرائك منزل هنا.»

فأجاب: «نعم، هذا صحيح... كان ثمة شيء كهذا، على كل حال.»

«ولكنني لم اكن اعلم، فأنت لم تكن هنا حين جئت في إجازة العيد.» واتسعت عيناها ذعراً تفكر انه كان بالامكان ان تصادفه في المدينة، أو على الشاطىء أو حتى هنا.

أجابها: «كلا، فقد أمضيت العيد مع بعض الأصدقاء في اميركا.»

في وسط المنضدة، كانت فيليسيا قد وضعت زهرية تحوي ورداً بيضاء من الحديقة التي كان يسقيها جدها بكل حب، وفي غمرة الصمت سمعا صوت سقوط ورقة منها، وبذهن غائب مد براند يده يلتقطها ثم يفركها بين اصبعيه.

أخذت فيليسيا تنظر إلى يديه إلى ان انسحقت ورقة الوردة كلياً، ثم إذا بها تفكر وقد تملكها الذعر، بأن هذا ما سيكون من أمره معها إذا هي لم تلتزم الحذر البالغ، ذلك انها لم تكن تشعر بذرة من الأمل في ان وصاية براند عليها ستكون أمراً سهلاً بالنسبة اليها، فهو سيكون سجانها حيث يخشخش بمفاتيحه في اذنيها صباحاً وظهراً ومساءً... إلا اذا انشأت لها وضعاً معروفاً منذ اليوم الأول وكان هذا هو الجواب... الدخول بسرعة.

دفعت كرسيها إلى الخلف، ثم وقفت مشيرة إلى ان الحديث انتهى، ثم ابتسمت له بعذوبة: «انني طبعاً خائفة من ان لا يرى بعضنا بعضاً اثناء الشهور المقبلة، ان هنا اشياء عليّ ان اضعها في الاعتبار، ولكن عليّ أن اعود إلى لندن ربما في منتصف الاسبوع القادم.»

نظر اليها وقد ضاقت عيناه: «آسف، ولكنني سبق واخبرتك ان اعمالي لا تسمح لي بالعودة بهذه السرعة.»

فقالت: «انني لا اطلب منك ان تأتي معي، ولكن يجب ان ترى انني إذا كان لي ان اتابع مهنة التمثيل...»

«أخشى ان مهنتك في التمثيل... كما يبدو.. يجب ان تتوقف حالياً لفترة، عندما قلت انني لا أنوي العودة إلى لندن الآن فقد كنت أعني بطبيعة الحال، انني لا أملك الحرية في السماح لك بذلك أنت أيضاً.»

تملكها للحظة واحدة نفس الشعور المعتاد من الخوف والعجز، ولكن كلا... فهو لا يمكن ان يمنعها من السفر في هذه الدقيقة لو شاءت.

فقالت بصوت بالغ الوضوح: «لا اظنك سمعتني تماماً، انني أريد ان اعود إلى انكلترا.»

«انك ستعودين طبعاً.» فحملقت فيليسيا فيه دون ان تصدق اذنيها، بينما كان هو يتابع قائلاً: «انك حرة في الذهاب إلى انكلترا أو إلى أي مكان تحبين... وذلك بعد الثاني والعشرين من شهر آب (اغسطس).»

فتشبثت بظهر كرسيها بقوة ابيضت معها مفاصل اصابعها، وهي تقول: «انني أقول لك انني ذاهبة الأسبوع القادم، وأنا سأذهب.»

«وأنا اقول لك انك لن تذهبي قبل ان اسمح لك بذلك.» وقفز براند واقفاً ثم اخذ يحدق الواحد منهما في الثاني عبر المنضدة لحظة طويلة.

سألته بعدها: «وكيف ستحاول منعي من ذلك بالضبط؟ بالمزيد من العنف، كما اظن.» ودون وعي منها ألقت نظرة على معصمها الأيسر حيث كانت تحيط به حلقة كامدة اللون كانت نتجت عن الضغط على يدها حين مساعدته لها في الخروج من بيته وصعود سيارته للذهاب إلى المطار.

تقبضت اصابعه وكأنه يتمنى لو يدور حول المنضدة

ليمسك بها، وحدقت هي بخوف إلى وجنتيه اللتين توهجتا احمراراً، اتراها تستفزه إلى القيام بشيء ما؟

تنفس بعنف، وقد بدا عليه بوضوح انه يجاهد للسيطرة على نفسه، وأخيراً قال: «كلا، وذلك لأسباب اكثر أهمية هذه المرة، ذلك انه بعدما رأيت نموذجاً صغيراً من نشاطاتك الحديثة... في لندن...» وإزاء النبرة الساخرة في لهجته، شعرت بوجنتيها تتوهجان بينما كان هو يتابع قائلاً: «ضعي في رأسك الصغير العنيد هذا انني لا أنوي على الاطلاق السماح لك بالعودة إلى هناك وحدك ثم...»

«وضع انت أيضاً في رأسك العنيد ان...»

«واذا انت لم تتعهدي لي بأن لا تغادري الجزيرة، فسأكون مضطراً إلى ان اطلب من الشرطة مصادرة جواز سفرك، وهذا كما تعلمين من حقي بصفتي الوصي عليك.»

فقالت وقد التهبت عيناها: «انك لن تجرؤ.»

«جربيني.»

وساد صمت طويل سألها بعده: «حسناً، هل تتعهدين لي بذلك؟»

فأجابت غاضبة: «اظن عليّ ذلك، فأنت لا تترك لي خياراً آخر، أليس كذلك؟»

فأطلق ضحكة قصيرة: «يا عزيزتي فيليسيا، اظن من خلال معرفتي بك، ان إعطاءك الخيار هو آخر ما ينبغي عليّ ان أمنحك. إذن فأنت توافقين؟»

«لقد قلت لتوي نعم، نعم، نعم.» قالت ذلك وهي تفكر في ان بإمكانها ان تتغلب عليه فيما بعد وذلك بالنظر إلى صغر الجزيرة.

«حسناً، لقد انتيهنا من هذا الأمر إذن.»

ولكن نظرة منه إلى وجهها الذي مازال التمرد يسوده، جعلته يقول بضيق: «والآن اسمعي يا فيليسيا، انني لست مسؤولاً عن غضبك هذا اكثر منك، ولكن هذه الأشهر القليلة القادمة يمكنك ان تجعليها سهلة هينة... كما بإمكانك ان تجعليها صعبة شاقة، فهذا راجع اليك.»

إزاء التهديد الضمني في كلماته، نظرت اليه بعنف، ولكن وبصورة مفاجئة، اذا بملامحه تسودها الرقة، ثم استدار حول المنضدة، ووقف ينظر إليها، وقبل ان تتراجع، كان قد وضع اصبعه تحت ذقنها رافعاً وجهها نحو وجهه، ثم لمس بإصبعه، بلطف الهالة القاتمة تحت عينيها، ثم قال بهدوء: «هنالك المزيد من التفاصيل علينا البحث فيها ولكن ليس اليوم. اظن عليّ الذهاب الآن إلا اذا أردتني ان أبقى.»

فأجابت بلهجة جافة: «كلا، شكراً، سأكون على مايرام.»

فأومأ قائلاً: «في هذه الحالة، ربما بإمكاننا ان ننهي الأمور اثناء الغداء في بيتي في وقت ما؟»

«حسناً...»

وإزاء ترددها، ابتسم بشيء من السخرية: «وإلا، فبإمكاننا ان نتقابل في مطعم في المدينة، ربما ستكونين اسعد حالاً على أرض محايدة.»

نعم، هذا صحيح... ولكنها من ناحية أخرى شعرت على الفور بفضول شديد لرؤية منزله في شارع فرنشي، وذلك كما حدثت نفسها بسرعة، لكي ترى الفرق بينه وبين شقته المترفة في لندن.

فقالت: «كلا، من الأفضل ان يكون ذلك في بيتك.»

«هذا حسن، سآتي لأخذك عند ظهر يوم الخميس المقبل، إذن.»

أبهذه السرعة؟ ولكنه طبعاً، متلهف إلى ان ينتهي من هذا العمل الكريه بأسرع وقت ممكن.

سمعته يقول شيئاً لمايبيل، وبعد عدة لحظات سمعت صوت محرك سيارته يدور.

(الأشهر القليلة المقبلة... قد تكون سهلة بالنسبة اليك، وقد تصبح صعبة...)

كانت ورقة الوردة المسحوقة مازالت ملقاة على المنضدة، فالتقطتها وحدقت فيها لحظة، ثم ألقت بها من النافذة المفتوحة.

الفصل السادس

يوم الخميس، وصل براند قبل ان تستعد فيليسيا تماماً. لقد سارت العجلات على الطريق الداخلي المرصوف بالحصى، ثم انصفق باب السيارة وبعد ذلك سمعت فيليسيا، وقلبها يخفق صوت وقع خطوات منتظمة.

اخذت تنظر اليه من النافذة وهي تضع في اذنها قرطاً فضياً ثم اخذت تنظر اليه وهو يصعد الدرجات الخشبية، كان يضع على عينيه نظارات شمسية قاتمة اللون ويرتدي قميصاً أسود طويل الكمين جعله يبدو بشكل ما اكثر إرهاباً من المعتاد، وبنطلوناً أبيض أنيق التفصيل.

حدقت فيه طويلاً محاولة ان تشعر نحوه بالكراهية... ومع ذلك... تملكتها صدمة وهي تدرك انها كانت تراقبه وقد تملكها شيء أشبه بالاشتياق... فابتعدت بسرعة وقد احمر وجهها.

ولكنه على كل حال، كما اخذت تفكر وهي تلتقط حقيبة يدها، كان رجلاً بالغ الوسامة، وربما هذا ما جعله ينشأ رجلاً متغطرساً لا يحتمل، وربما كان ظريفاً تماماً إلى ان نظر مرة في المرآة ذات صباح فأدرك انه يحدق في شخص فارع القامة أسود الشعر وذي عينين زرقاوين هادئتين و...

وعندما فتحت الباب رأته مستغرقاً في تأمل بعض النباتات المتواجدة تحت حاجز الشرفة. التفت اليها واخذ

يتأملها، دون ان يبتسم من خلف نظارتيه وهي تتقدم نحوه، كان في عنف نظرته تلك شيء ما يهدد بتقويض ما اكتسبته من رباطة جأش، وفي نفس الوقت تملكها السرور لأنها انفقت وقتاً طويلاً على جعل نفسها في أحسن مظهر لأجل هذا الموعد.

كانت عصر يوم أمس بعد ان لم تعجبها ملابسها بأجمعها، قد نزلت إلى السوق لشراء ثوب جديد، وإذ كانت تنوي شراء ثوب يصلح لكل مناسبات الغداء، فقد نبذت طراز الثياب الفضفاضة العديمة الشكل الذي اعتادت استعماله، ودخلت إلى متجر لكي تشتري ثوباً كحلي اللون وذا ياقة عالية كانت سبق ورأته في الواجهة، ولكن ثوباً آخر توقفت عنده طويلاً. كان ثوباً من الكتان مؤلفاً من قطعتين، تنورة ضيقة على الوركين، ثم واسعة حتى أسفل الركبتين، اما الجاكت فكانت مستقيمة ودون ياقة، وبلوزة من قماش الفوال.

اخذت تحدق في نفسها فترة طويلة وهي ترتديه امام المرآة في غرفة التغيير، وهي تقلب شفتيها، ولكنها أخيراً استطاعت ان تقنع نفسها بأن اللون الوردي الصارخ هو لون عملي تماماً مثل اللون الكحلي، وخصوصاً إذا رفعت شعرها بشكل شينيون فوق رأسها بدلاً من تركه مسدلاً على كتفيها كما اعتادت.

«مرحباً براند.» ورفعت بصرها إليه ثم تذكرت ما كانت صممت عليه اثناء تناول الإفطار، وهو ان تلتزم جانب السلوك الحسن، فأضافت تقول: «انني آسفة لتأخري.»

فهز كتفيه: «أنا الذي جئت مبكراً.»

ولكنه مازال لم يبتسم وأحست بالتوتر ينبعث منه حتى انه ابتدأ يتسلل إلى كيانها، وفي محاولة لتبديده، زمت شفتيها تغيظه، بقولها بدلال: «آه، يا عزيزي، كان عليك ان تمدحني بقولك انني أبدو رائعة الجمال.»

توترت ملامحه، فأمسك بها بكتفيها يهزها: «لا تعبثي معي بالكلام، يا فيليسيا، هل تسمعين؟» كان صوته خشناً، وعندما لم تجب قال: «حسناً؟»

فتمتمت تقول: «انني اسمعك.»

«لا أريد ان تتدربي على ما تحفظينه من فنونك التمثيلية في الإغراء، عليّ انا.»

انتفضت في سرها للألم الذي شعرت به لكلماته الوحشية، ولكنها لم تقل سوى: «لا تقلق يا براند، فأنا لن اضيع ذلك عليك.» ثم انطلقت أمامه تهبط الدرجات.

فتح لها باب السيارة فصعدت دون ان تنظر اليه عندما جلس في مقعده. عند ذلك استند بظهره إلى الخلف وهو ينقر على عجلة القيادة، ثم قال ساخطاً: «آه، يا فيليسيا.. أي أفكار طائشة جعلتك تفعلين ذلك؟ لقد جئت هذا الصباح إلى هنا وكلي نوايا طيبة، ولكن خلال نصف دقيقة لاخذت باستفزازي ما جعلني أهم بصفعك على وجنتيك.»

فقالت وقد ثار غضبها: «حسناً، رغم كل هذا الظلم... فأنا اريدك ان تعلم أنني قبل وصولك، كنت قد حزمت أمري على أن اعقد معك هدنة تدوم إلى ان يذهب كل منا في سبيله، ولكن إذا بك تأتي لتهينني... لا يمكنك ان تعقد هدنة من طرف واحد، أليس كذلك؟» وارتجف صوتها.

«ماذا؟ هدنة تدوم إلى منتصف ليلة الثاني والعشرين من

آب (اغسطس)؟ حيث انني اعرفك جيداً، فأنا لست واثقاً من ضمان ذلك.» وابتسم لها: «ولكننا على الأقل سنقول(سلاماً) لهذا النهار، أليس كذلك؟»

فتملكها الإشمئزاز وهي تفكر في أنه وقح متقلب، ولكنها مع ذلك قالت: «نعم، لا بأس، سلام.»

«كيف حالك على كل حال؟ هل انت أحسن؟»

فقالت مفكرة: «تبدو بسؤالك هذا وكأنك عم لي، تماماً مثل المحامي جيم بيلي.»

«حسناً، ربما هذا لأنني عاهدت نفسي هذا الصباح على ان اكون هذا النهار بمثابة عم لك.» وكان في صوته وهو يقول ذلك، نبرة هزل جافة، ثم عاد يسألها: «كيف حالك؟»

«أحسن كثيراً وشكراً لك، لقد زارني الدكتور باريت أمس وتحدثنا طويلاً، اخبرني بأن جدي في سنه ذاك، لو انه عاش لكان عليه ان يكون من الآن فصاعداً بالغ الحذر بالنسبة إلى صحته، وهذا أمر مريع بالنسبة إلى رجل بالغ الحيوية والنشاط مثله، ولهذا كان من الأفضل له ان يرحل.»

أخذ يتفحص وجهها عدة ثوان، ثم وكأنه شعر بالرضى، أومأ برأسه ثم أشاح بوجهه يشعل محرك السيارة، سألته وهو يخرج من طريق المنزل إلى الطريق العام: «ظننتك ساكناً خارج المدينة ناحية خليج فرنشي؟»

«هذا صحيح، ولكن هناك شاحنة على الطريق محملة بالخيزران تحاول ان تغير اتجاهها، مشيعة الفوضى حولها... وعلى كل حال، فهذه طريق مختصرة.»

فقالت: «ولكن...» ولكنها سرعان ما عادت إلى الصمت

وهي ترى طريقاً مألوفاً امامهما فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها.

لم يكن نبات قصب السكر مرتفعاً الآن، ولكن مازال يصافح مسامعها صدى خفيف كصوت بعيد صادر عن صدفة بحر تلك الليلة.. وبعد لحظات سيستديران حول المنعطف، ثم...

تقبضت يداها على حزام حقيبتها متشنجة، عندما تحولت عيناها، بالرغم منها إلى ذلك المنزل البعيد بين الأشجار، سمعت نفسها تقول بصوت استطاعت تقريباً ان تجعله طبيعياً: «كنت تسكن في مكان ما في هذه الأنحاء، أليس كذلك؟»

«نعم.»

ولكن بدلاً من ان يبطىء من سرعة السيارة، بدا لها أنه يزيد من سرعتها دون ان يحول عينيه عن الطريق...

• • •

عندما أوقف براند السيارة هتفت فيليسيا مخترقة الصمت الذي كان دام بينهما مدة طويلة، هتفت تقول: «آه، ما اجمله.» ومالت إلى الأمام مشبكة يديها، «يا له من منزل ساحر.»

فقال بلهجة جافة، رغم انها أحست بأنه كان مسروراً، قال: «شكراً يسرني انه اعجبك، انه قديم جداً طبعاً.»

«هل له اسم؟»

«نعم، انه ساندبيبرز.»

نزلت من السيارة ورفعت بصرها إلى المبنى ذي الطابق

الواحد، والقائم وحده على منحدر منخفض يشرف على مساحة من الرمال قائمة بين البحر من ناحية والتلال من ناحية أخرى. كان فسيحاً منبسطاً، بينما جدرانه الخشبية البيضاء والشرفة الطويلة الخضراء، والتي تلتف حول ناحيتين من البيت كانت تغطيهما وتتدلى منهما النباتات والأزهار.

التفتت إليه فرأت عينيه تنظران إليها، فسألته: «هل زرعت كل هذا؟»

«كلا، مع الأسف، المالكة الأولى للبيت هي التي قامت بذلك، كما أظن، فقد كانت تحرر في مجلة أميركية في موضوع البستنة مدة سنوات، وكانت تقضي في هذا المنزل إجازاتها من العمل.»

خرج إلى الشرفة خادم صيني، ينتظرهما، فقال براند: «تشانغ، هذه الآنسة ناوتون.»

وعندما ابتسمت فيليسيا، التفت براند اليها: «اظنك تحبين ان تغسلي يديك، ان تشانغ سيدلك على الطريق.»

يا له من مضيف رائع... مهذب، ومصقول كالماس... ولكنها قالت متخذة صفات الزائرة الكاملة التهذيب: «شكراً.» ثم تبعت الخادم إلى المنزل لتمر خلال ممر ذي برودة منعشة، حيث لمحت من خلال باب نصف مفتوح ما بدا لها وكأنه مكان عمل براند.

تركها تشانغ في جناح صغير للضيوف في مؤخرة المنزل يطل على البحر، وكان عبارة عن غرفة جميلة كانت نوافذها المستطيلة الضيقة مزينة بالياسمين الأبيض والذي كان شذاه يعبق في الجو.

كان الأثاث وكل شي لامعاً نظيفاً متألقاً، أنيقاً. هل هو تشانغ من يقوم بهذا كله، أم هي امرأة؟ زوجة براند مثلاً، ولأول مرة يقفز هذا السؤال إلى رأسها، هل هو متزوج؟ هل هو مطلق؟ هل لديه صديقة دائمة؟ لقد تعودت رؤيته، والتفكير فيه، وحده... ذلك ان الرجال الناجحين ذوي الوسامة الذين تحيط بهم هالة من الجاذبية، لا يبدو الواحد منهم في صفحات صحف الأحد دون انثى متألقة تتأبط ذراعه.

عندما غسلت يديها في المغسلة الخضراء، حاولت ان تتصور وجه من يمكن أن تكون امرأة لبراند كارادين، هل هي شقراء؟ أم حمراء الشعر؟ ام سمراء؟ طويلة القامة، معتدلة؟ كلا، لا فائدة من ذلك، فذلك الخيال كان يحيرها بحيث لم تتمكن من الاستقرار على رأي.

• • •

«رأيت ان نتناول غداءنا هنا.» ونهض براند عن الأرجوحة، التي كان يجلس فيها ورجلاه ممتدتان امامه، وهو يشير إلى مائدة الغداء: «إلا اذا كنت تفضلين غرفة الطعام.»

«كلا، فالمكان هنا رائع.»

في هذه الناحية البعيدة من المنزل، لم يكن هناك سوى الشاطىء حيث المياه الخضراء تنساب برقة فوق الرمال الشاحبة إلى تحت اقدامهما تقريباً. وانطلق من الشاطىء زورق صغير، كما كان مركب بخاري فخم من النوع الذي يستعمله صيادو سمك القرش كان متوقفاً إلى جانب الشاطىء.

سألته: «أتحب صيد السمك؟»

فنظر إلى حيث كانت تنظر وأجاب: «ليس في ذلك المركب، فأنا استعمل هذا عندما أذهب للغوص.»

«طبعاً، لقد تذكرت الآن فهذا ما جعلك تتعرف إلى جدي... ثم تنتهي بالإستقرار معي.»

لوى شفتيه بجفاء ومال برأسه قليلاً وهو يقول: «هذا وصف رائع.»

«وهل تستعمل المركب ليأخذك إلى الشعاب المرجانية؟»

«أحياناً.» قال ذلك باختصار ثم سحب كرسياً لها. وعندما جلست عليه، اقبل تشانغ حاملاً أول نوع من الطعام، وهو سمك السلمون وحوله شرائح الخيار...

«لقد تعلم شانغ الطهي في فندق خمسة نجوم في المارتينيك، ولهذا فهو يميل إلى الطهي على الطريقة الفرنسية.»

«وأنت؟ هل تفضل طريقة الفرنسيين في الطهي؟»

فرفع كتفه: «لا يهمني نوع الطعام الذي اتناوله.»

«أحقاً؟»

«حسناً، لا أدري، كنت أظن انك...»

كان قد رفع نظاراته عن عينيه ما جعلها ترتبك وتتلعثم تحت وطء نظراته المتفحصة، وتابعت تقول: «رجل يحب الطعام الجيد.»

ألقى عليها نظرة طويلة قال بعدها: «يا لك من فتاة تحسن الاستفزاز.»

كانت ما تزال تفكر في جواب مناسب بديهي خال من الاستفزاز، عندما عاد تشانغ، واصبح بإمكانها الجلوس

دون كلام بينما كان هو يخلي المائدة من الأطباق الفارغة بسرعة ومهارة ملحوظة، ثم يحضر النوع الثاني من الطعام والذي كان عبارة عن إسكالوب بالقشدة مع البطاطا واللوبياء، واثناء تناول الطعام استغرق براند في صمت كئيب وجدته فيليسيا مثيراً للأعصاب.

ابتلعت ريقها، ثم وجدت نفسها تقول بصوت متهدج: «انه منزل جميل حقاً، ولكنه كبير جداً... بالنسبة لشخص واحد.»

أجاب: «نعم، هذا صحيح، ولكن كما ترين يا فيليسيا، هنا يعيش شخصان.»

«شخصان؟» وحدقت اليه من تحت اهدابها وقد توقفت عن تناول الطعام.

فأجابها بلطف: «ان تشانغ يعيش في المنزل.»

فأجابت وهي تعود مجدداً إلى تناول الطعام: «آه، فهمت.»

قال بعد لحظة صمت: «اتعلمين يا عزيزتي فيليسيا؟ انك اكثر وضوحاً من ان تكوني فتاة معقدة مراوغة، ولمعلوماتك انا غير متزوج.»

فقالت وهي مازالت تحدق في صحنها: «آه، لم... لم اكن اقصد التطفل.» وعندما ابتسم لها غير مصدق، استمرت تقول مؤكدة: «لا شيء غير هذا... حسناً، حيث انك الوصي عليّ، عليّ ان اعرف كل شيء عنك، وطبعاً اعرف الكثير عنك.»

«قبل ماذا؟»

لاذت لحظة بصمت متوتر قالت بعده: «حسناً، انك رجل اعمال ناجح جداً.»

«أهذا كل شيء؟»

«وأيضاً...» كان هذا الغداء العملي قد ابتدأ يصبح أشبه بحقل الغام تسير فيه معصوبة العينين، «انت تحب الغوص في سكوبا.»

فضحك قائلاً: «ذكاء لامع، هل هناك شيء آخر؟»

«وليس لديك أولاد، انني اذكر انك كنت قلت هذا لجدي.»

«يبدو انك تتذكرين الكثير عن عصر ذلك اليوم.» واخذ يبادلها النظر عبر المائدة مباشرة.

«نعم، هذا صحيح.» ولكنها فجأة وجدت نفسها غير قادرة على النظر في عينيه المتحديتين هاتين، وعندما جازفت بنظرة أخرى كان وجهه قد اصبح جامد الملامح، بدا وكأنه وضع حاجزاً بينهما، وكأنه يقول: «اسمعي، لقد أوكل إليّ هذا العمل بدون حق، وأنا انوي بذل جهدي للقيام بهذا الواجب، ولكن لا تتصوري لحظة واحدة انني أنوي السماح لك في ان تكوني قريبة مني.»

كان يسكب لنفسه كوباً من الماء البارد، فأخذت تنظر إليه وهو يضع الإبريق ثم يشرب، ممعنة النظر في زوايا وجهه الحادة، وعنقه القوي، والتماع شعره الأسود والخصلة المتهدلة على جبينه.

عادت إلى طعامها مرة أخرى مركزة كل اهتمامها على شريحة الاسكالوب.

«اتعلمين؟ انك تضعين قرطاً أعلى من الآخر.»

«ماذا؟» وانتفضت رافعة رأسها ما جعل قرطيها الطويلين يتأرجحان على وجنتيها. «آه، نعم.. حسناً...» وتابعت عابسة: «لقد كنت ثقبت، انني في الواقع بنفسي فلم أحسن جعلهما متوازيين.»

فنظر اليها غير مصدق: «ماذا فعلت؟»

«نعم، هذا صحيح، أردت ثقبهما كبعض صديقاتي، ولكن ذلك كان ضد قوانين مدرستي، ولكنني كما قلت، لم استطع جعلهما متوازيين، ولم يلحظ ذلك احد.»

وشعرت بعد فوات الأوان انه كان عليها ان تضبط لسانها.

«ولكن ليس عليك ان تقلق، فأنا لست كذلك الآن، صدقني انني لم اعد طائشة على الاطلاق.»

فقال متهكماً: «مادمت تقولين هذا، فلا بأس.» ودون ان تلاحظ جيداً، كان شانغ قد رفع الأطباق ووضع الآن صينية الكاتوا بالشكولاته، ثم انسحب.

قال لها براند: «لقد اسبغ عليك شرفاً كبيراً، فهو عادة لا يعد هذا النوع من الكاتو إلا لضيوفه المفضلين.»

«هل هو يعلم انني... ما هي الكلمة؟»

فقال بجفاء: «وصيتي. انني لم اخبره ولكن حسب معرفتي الجيدة بهذا المكان، اتصور ان اسلاك الهواتف اخذت بالإهتزاز مؤخراً.»

«نعم، وهذا ما أتصوره أنا أيضاً.»

قالت ذلك وهي تأخذ قطعة من الكاتو قدمها إليها...

• • •

كان تشانغ قد وضع صينية القهوة على منضدة منخفضة من الطرف الآخر من الشرفة حيث كانت كرسيان قريبتان من بعضهما البعض، وحركت فيليسيا احداهما بقدمها خلسة تبعدها عن الأخرى.

«هل تريدين شيئاً غير القهوة؟»

«كلا، شكراً. فالقهوة هي شرابي المفضل.»

«هذا حسن.»

ولكن براند قال هذا بشكل آلي، وكأن ذهنه غائب في مكان آخر، وكان هناك شيء آخر، فحتى هنا في مكانه الخاص وخلف التهذيب السطحي البادي عليه، لم يكن مرتاحاً تماماً، كان مقطباً حاجبيه قليلاً، وذلك التوتر الخفيف في نبرات صوته... ثم... ورمقته بنظرة جانبية من فوق حافة فنجانها، ثم تلك الطريقة التي كان ينقر بها صحن فنجانه بالملعقة...

ثم سألته قائلة: «ألا تظن ان الوقت قد حان لكي نتحدث؟»

فنظر اليها وكأنه يعجب لوجودها هنا: «ماذا؟»

«ان هذا كما تعلم، غداء عمل.»

«آه، نعم، طبعاً.» وصرف ما قد يكون في رأسه من افكار قاتمة، ليعود رجل اعمال مرة أخرى.

«لقد تحدثت مع جيم بيلي ونظمنا بيننا كل شيء.» فكرت في انه من المؤكد انه نظم كل شيء، ولكن الحكمة جعلتها تلوذ بالصمت، محدثة نفسها بسخرية بأنها قد ابتدأت تتعلم كيف تعالج هذا الموقف.

«انه سيدفع كل نفقاتك... ما ينفق على المنزل، من أجر مايبيل والبستاني، وهكذا... وستحصلين على مبلغ شهري لملابسك وما أشبه. ورأينا ان أربعمئة دولار يكفيك.»

«نعم، انني...»

«والمنتظر منك ان تلتزمي بهذا المبلغ.»

«آه، اظنني سأتدبر أموري بشكل ما.» ولم تستطع ان تمنع النبرة الساخرة في صوتها حيث انها كانت منذ سنوات

تعيش على مبلغ أقل من هذا بكثير، وتابعت تقول: «ان لي ذوقاً بسيطاً جداً في العيش.»

«آه.» ونظر إلى ثوبها الغالي الثمن والمكون من قطعتين والذي احدث نقصاً كبيراً في حسابها في المصرف، ثم قال بعد فترة صمت قصيرة: «وهنالك بعض الأمور الأخرى.»

«اتعني سلوكي الشخصي؟ آه، لا تقلق، يا براند، يمكنني ان اطمئنك إلى ان ليس عليك ان تقلق لهذا الشأن.»

«هل انت واثقة تماماً من ذلك؟»

فتملكها الغضب: «ما معنى كلامك هذا؟»

فلوى شفتيه ساخراً: «حسناً، دعينا نذكر فقط أن ما رأيته من تصرفاتك في لندن...»

«آه.» وكبحت رغبة مفاجئة في أن تهجم عليه لتنشب اظافرها في وجهه، ولكنها بدلاً من ذلك، شبكت يديها في حجرها وقالت بصوت حاولت ان تجعله هادئاً: «لقد كنت اخبرتك ان تلك كانت المرة الأولى التي قمت بها بذلك العمل، اما بالنسبة لما حدث اثناءها، فأنت حر في ان تصدقني أو لا تصدقني.»

«على كل حال، مهما كان ذلك الأمر، فهو ليس كل شيء، فأنا لا يعجبني نوع الناس الذين تعاشرينهم هناك.»

فوضعت فنجانها على الصحن بعنف كاد يتحطم معه، وهي تقول بحدة: «كيف تجرؤ، حتى ولو كنت الوصي علي... وصيي المؤقت، لحسن الحظ. ولكن ليس لك الحق على الاطلاق في ان تنتقد صديقتي ليزي ودايب، فهما بالغتا الرقة واللطف، حقاً كما أن آل... حسناً، فأنا لا أكاد اعرفه.»

«دعي أمره معك إذن عند هذا الحد.» فأثار هذا التهديد الضمني في صوته اعصابها.

«هذا عائد إليّ... أو على الأقل، هذا ما سيكون، حالما تنتهي هذه المسرحية السخيفة.»

قال باستهزاء: «كلما كان الأمر أسرع، كان ذلك افضل، حسب ما أرى.»

آه، لقد كان الأمر لا رجاء فيه، وانحنت كتفاها بملل، كيف لهما ان ينتهيا من هذه الخمسة أشهر دون أن يقتل احدهما الآخر؟ ولكن لم يكن ثمة فائدة في ان تتشاجر معه، فإذا هي منحته ولو شبه عذر، فإن حياتها لا تستحق ان تعاش، فهذه المئة وخمسين يوماً ستكون دون نهاية.

كم ستضحك منها الأيام وهي تنصب لها هذا الفخ، إذ تجعل من هذا الرجل، دون كل الرجال، مسؤولاً عنها، ولكنها كانت تقول له الحقيقة عندما قالت له ان لا يشعر بالقلق عليها...

وفجأة شعرت بأنها لم تعد تستطيع التحمل، فأنهت آخر رشفة من قهوتها ثم هبت واقفة وهي تقول: «هل لي أن القي نظرة على حديقتك؟» وعندما لم يجب، تابعت تقول: «كلا... يمكنني الذهاب وحدي، شكراً.» ولكنه كان قد وقف فعلاً.

سار امامها خلال الفناء المعشوشب الذي كان يحيط بالمنزل، وهو يقول: «أخشى ان يخيب أملك، إذ يبدو ان المالكة السابقة قد أنفقت الكثير من الوقت تحدث فيه قراءها كيف يهتمون بحدائقهم ما جعلها لا تجد وقتاً للاهتمام بحديقتها هي.»

ولكن الأرض المحيطة بالمنزل كان قد بوشر بزراعتها

فقامت في أنحائها فسائل أشجار الصنوبر، كما ان تصميم الحديقة تم بشكل ان يتغير المنظر كل بضع خطوات ليبدو منه منظر البحر الأزرق ـ الأخضر الرائع.

سارت أمامه على بعد مسافة قليلة حيث اخذت تتمشى في طريق دائري خلال أجمة من اشجار الورود المختلفة مبعثرة امامها سرباً من الفراشات الزرقاء الضئيلة الحجم، وإذا بها تجد نفسها فجأة امام حاجز من القرميد يلتف حول حوض سباحة بيضاوي الشكل.

فاستدارت اليه تقول: «ما اجمل هذا، فالمرء لا يتكهن بوجود حوض سباحة قبل ان يظهر له فجأة.»

«انني نادراً ما استعمله، ولكن مرحباً بك في السباحة هنا في أي وقت تشائين، فأنا اعلم ان ليس لديك حوض سباحة في منزلك.»

فابتدأت تقول: «انا...» ثم خرست وقد تجمدت الكلمات في فمها، وفي ذاكرتها صورتان، الصورة الحالية وهي تسبح في هذه المياه المترقرقة، والصورة الأخرى، وكأنها النسخة السلبية لهذه، هي لحوض مظلم هادىء كالزيت، بينما هي تمد يدها إلى صدفة فضية تتألق في يد منحوتة حجرية.

«عندما لا اكون هنا، يمكنك ان تأتي للسباحة.» ماذا سيكون ظنه بها لو انه اكتشف من تكون؟ كان الذعر من ان يكتشف ذلك يوماً ما، هذا الذعر كان يتزايد في داخلها، ودون ان تنتظره، استدارت ثم هربت دون ان ترى شيئاً، غير عابئة بالنباتات التي كانت تخدش ذراعيها وساقيها وهي تمر بها.

وعندما وصل اليها كانت تنتظر ومازال وجهها شاحباً، عند درجات الشرفة، فقالت دون ان تنظر اليه: «أريد ان اذهب من فضلك.» ونظرت إلى ساعتها وقد بدا عليها ذهول غير عادي، ثم قالت كاذبة: «لقد... لقد تذكرت الآن انني كنت وعدت صديقة قديمة بأن أذهب لزيارتها عصر هذا اليوم.»

www.elromancia.com

الفصل السابع

ألقت فيليسا بحقيبة الشاطىء على الرمال الدافئة، ثم جلست على بساطها المصنوع من القش، جاعلة ذقنها على قبضتيها وهو تنظر حولها بكسل.

كان الشاطىء مزدحماً بالمصطافين في شهر تموز (يوليو) من هذا الصيف، ومع هذا فهي لم تر شخصاً تعرفه. وتنهدت بأسى، كل اصدقائها من ايام المدرسة اما تركوا الجزيرة أو مثل سكوت، دخلوا الحياة العملية، وفي هذا الصباح كان التفكير في نهار آخر لا نهاية له تمضيه بمفردها على الشاطىء، متجنبة بحذر أي حديث عابر من أي شاب لا غبار عليه وذلك خوفاً من ان يكون براند موجوداً في مكان ما، فيراها... وان يكن مزاجها لا يتقبل حالياً أي تبادل للحديث مع أي كان على كل حال... ما جعل نفسيتها متعبة للغاية.

ولكنها في الواقع لم تكن ترى براند كثيراً مؤخراً... وهذا ما جعلها طبعاً شاكرة للغاية، وإذ لم يبق امامها سوى اقل من نصف شهر الآن فقد بدا ان قبضة براند الحديدية قد بدأت تتراخى الآن. وفي الحقيقة لم تكن الأمور قد مرت بها كما كانت معتقدة، وذلك لسبب واحد وهو انها لم تجد صعوبة في العيش بشكل مريح تبعاً للمبلغ المعين لها شهرياً، ولهذا لم يحدث أي نقاش مؤلم بهذا الشأن، وعلى كل حال فالمال هو مالها.

شيء واحد كان قد حدث منذ مدة، فقد كانت تجلس في مقهى عام ذات مساء مع سكوت، تضحك لذكريات مدرسية قديمة، عندما انتبهت إلى عينين رماديتين تراقبانها، فبادلته نظرة بنظرة، ثم عندما تعمدت الالتفات عائدة إلى سكوت، مهنئة نفسها على قدرتها على التصدي لبراند، رأته من طرف عينها ينهض واقفاً وهو يعتذر لمن كان يجلس معهم، وبينهم كما رأت وقد تملكها الاستياء، عدة فتيات متألقات للغاية، ثم تقدم باتجاههما.

كانت قد تجاهلته تماماً إلى ان شعرت بساقين طويلتين في بنطلون جينز يحتكان بذراعها التي كانت تضعها على ذراع الكرسي، ثم حتى قبل ان تظهر له أي انتباه، كان قد جلس بينهما، دون دعوة، وليس هذا فقط... وشعرت بوجهها يحمر للذكرى، فهو لم يضيع وقتاً، إذ بادر إلى تذكير كل شخص يسمعه بأنه وصيها القانوني، بينما كانت هي مرغمة على الجلوس شاعرة بأنها في الخامسة من عمرها، وقد ارتسمت على ملامحها ابتسامة اشمئزاز، محاولة ان تكبح رغبة في أن تغرز سكينها بين اضلعه.

وأخيراً، يبدو انه اقتنع بأن رفيقها غير مؤذٍ أو ربما أقنع نفسه بأن سكوت مهما كان موقفه، فهي وصيته المطيعة، لا ترى في هذا الشاب سوى صديق عادي، وهكذا بعد إيماءة باردة شملتهما معاً، عاد إلى رفاقه، ولكن عدا عن تلك الحادثة، لم تكن تراه كثيراً، وفي الواقع، لولا استحالة ذلك، لظنت بأنه كان يتعمد الإبتعاد عن طريقها...

ومع ذلك فقد كانت تشعر بأنه موجود دوماً في حالة حاجتها إليه، وكان جزء منها يرى ذلك مريحاً إلى حد

غريب، واكثر من ذلك كانت تفكر بأنها ستشعر بالأسف حين يأتي عيد ميلادها يؤذن بانتهاء الوصاية، وبذلك يطلق لها حريتها.

ولكنها ما لبثت ان اخذت تسأل نفسها ساخرة، هيا يا فيليسيا... من تراك تخدعين؟ فهو طاغية لا يحتمل وسيكون كذلك على الدوام، وإذا كانت هذه الشهور الأربعة قد مرت بهدوء، فالسبب هو انك لم تتركي له سبباً للشكوى، وإلا لقيدك بالسلاسل.

ولكنه على الأقل يبدو واثقاً تماماً من ان بإمكانه ان يتركها الآن بمفردها في الجزيرة، وقد اتصل بها هاتفياً منذ ثلاثة ايام ليقول لها ان عليه ان يسافر إلى نيويورك، وقد يذهب من هناك إلى تورنتو.

وللحظة عندما بدا عليه التردد، تساءلت عما إذا كان سيصر عليها بالذهاب معه هي أيضاً، واذا به يقول لها بعنف: «إلى اللقاء.» ثم اقفل الخط تاركاً إياها ماتزال تحمل السماعة بيدها، شاعرة بكتلة تضغط على صدرها، وأدركت فيما بعد ان الشعور بالوحدة يمكن ان يخلق في المرء مختلف الأحاسيس.

«فيليسيا؟ انها انت أليس كذلك؟»

كان الصوت لشاب يقف مشرفاً عليها، فأخذت تحدق إليه غير واثقة، ولكن بعد ان ابتسم لها ضاحكاً، هتفت تقول: «آل؟ ما الذي تفعله هنا؟»

هبط جالساً على طرف بساطها وهو يجيب: «آه، انني في إجازة استحقها تماماً، ولكن لدي بعض الأعمال هنا في نفس الوقت. بالطبع انني هنا لأشتري أوزاً للجيران.»

«آه؟» فضحك قائلاً: «كلا، لقد كنت أمزح.» وغمز بعينه، متابعاً: «ولكنني أزور النوادي والمقاهي والمسارح، آملاً ان اعود قريباً.»

«ألم يصادفك أي حظ بعد؟»

أجابها: «واحد أو اثنان على الأغلب، يمكنني ان أجري معهما عقداً، ولكنني مازلت أبحث، هل لديك أية افكار بهذا الشأن؟»

فهزت رأسها ببطء: «كلا، مع الأسف، لا اعرف احداً.»

«ولكنك لا بد ترين المسارح المحلية، فأنت هنا منذ... متى؟ أربعة اشهر الآن.» وسكت قليلاً: «وبالمناسبة، لقد سمعت عن اخبارك الجيدة... آسف أعني المحزنة.»

كان هذا طبيعياً، فقد كانت كتبت إلى ليزي تبلغها فيها بوفاة جدها ووراثتها له، قائلة بأنها لن تعود إلى لندن... حالياً، فقد منعتها كبرياؤها من ان تكشف لها عن السبب الحقيقي لعدم عودتها إلى لندن أو ان جدها قد عين لها وصياً، أو من يكون ذلك الوصي...

«يبدو عليك التأثر البالغ، يا فيليسيا.»

نظر إلى ساعته: «اسمعي، اعملي معي معروفاً، يا فيليسيا... وتناولي الغداء معي، لقد اكتشفت في المدينة مطعماً للأطعمة البحرية.» وعندما بدا التردد في عينيها اضاف يقول محاولاً اقناعها: «انني أكره تناول الطعام وحدي.»

«حسناً...» ومازالت مترددة تنظر اليه من وراء نظاراتها الشمسية، صحيح انه في ملابس الشاطىء والقميص المطبوع بالأزهار، كان يبدو اجمل شكلاً مما يكونه في ملابس المدينة، ولكن ماذا سيقول براند؟ وابتلعت ريقها

للفكرة المفزعة ووجدت نفسها تنظر بشكل جزئي من فوق كتفها، ولكنها عادت تفكر بتمرد، آه ما هذا؟ الأمر لن يخرج عن ان يكون مجرد غداء، ومما يدعو إلى الأسى ان يكون انسان في إجازة وحده، هذا فضلاً عن ان براند يبعد عنها عدة آلاف من الأميال الآن.

وابتسمت له: «شكراً يا آل، يسرني هذا.»

• • •

«شكراً لمجيئك معي يا فيليسيا.»

«آه، لقد استمتعت انا بذلك.» وكان هذا صحيحاً، فقد كان آل رفيقاً مسلياً اثناء الغداء، وهو يروي لها سلسلة من القصص المضحكة عن آخر نوادر زميلتيها دايب وليزي والآخرين، وتابعت تقول مترددة: «حسناً، اذا لم أرك قبل سفرك...»

«هل ستعودين إلى الشاطىء؟»

«آه كلا، ففترة بعد الظهر شديدة الحرارة بالنسبة إليّ، هذا إلى أنني سأخرج هذه الليلة.»

«سآخذك إلى البيت، إذن.» ثم جرها من ذراعها بحزم إلى سيارته المستأجرة، وعندما وقف امام المنزل نزلت فيليسيا من السيارة، ولكن قبل ان تقول له وداعاً، كان قد نزل هو أيضاً ووقف ينظر حوله باهتمام واضح: «إذن فهذا هو بيتك؟»

«نعم، وقد تركه لي جدي.»

«يا لك من فتاة محظوظة، انها املاك حقيقية حسنة للغاية.»

فابتسمت له بتردد: «شكراً لاحضاري إلى البيت، فقد وفرت عليّ مشقة السير.» وعندما لم يبد عليه انه سيذهب، اضافت تقول بأدب: «هل تحب ان تدخل لشرب فنجان قهوة؟»

سارت امامه إلى الشرفة وقدمت له كرسياً، وعندما جلس قال بلهجة عفوية: «اسمعي، بالنسبة لذلك العمل الذي تحدثت عنه اثناء الغداء، ان العرض سيكون ناجحاً جداً، وكل ما يحتاجه هو ممول آخر... وحيث انك..»

فقاطعته بحزم: «كلا، مع الأسف، يا آل، فأنا لن أبيع هذا المنزل أبداً.. فأنا أحبه كثيراً، اما بالنسبة إلى اموالي، حسناً، كما كنت اخبرتك، هو محتجز الآن.» ولكن شيئاً ما منعها من ان تفصح عن السبب في ذلك بالضبط.

«هذا مؤسف. حسناً، إذا غيرت رأيك فأنت تعرفين مكاني.»

فابتسمت وهي تسأله: «والآن ماذا تشرب؟ عصير برتقال أم قهوة؟»

«قهوة من فضلك وشكراً.»

تركته واضعاً قدميه على درابزين الشرفة ودخلت المنزل متجهة إلى المطبخ حيث أخذت تصنع القهوة، ثم خرجت بالصينية دون ان تنسى كوب عصير ليمون لنفسها، وبعض البسكويت في طبق صغير، ولكنها وهي تسير في الممر، توقفت، كان معطف الشاطىء الذي ترتديه يشعرها بالحرارة، كما كانت الثياب التي ترتديها تحته تحتك بكتفيها بخشونة بسبب حبيبات الرمل العالقة بها، ما ضايقها جداً، وبنظرة سريعة من خلال مصراعي الباب، رأت

آل مستنداً إلى الخلف مغمض العينين، فأسرعت إلى غرفتها، ووضعت الصينية على المنضدة بجانب السرير، ثم اخرجت من الخزانة ثوباً قطنياً أبيض، ثم دخلت إلى حمامها الصغير بسرعة.

وقفت نصف دقيقة تحت الدوش، ثم لفت نفسها برداء الحمام وعادت إلى غرفتها وهي تجفف جسدها بسرعة. وإذا بها تصطدم بآل.

قفزت إلى الخلف وهي تشد الحزام جيداً وتطلق صرخة مختنقة، ولكن ذراعيه اندفعتا نحوها يجرها إليه: «فيليسيا حبيبتي.»

فصرخت: «كلا، كلا، دعني اذهب، ارجوك.» وعادت تصرخ برعب بالغ وهي ترى وجهه متوهجاً برغبة مفاجئة.

ترك أحد ذراعيها، ثم ابعدها قليلاً يتأملها، ثم يتمتم: «يا له من قوام رائع.» هذا بينما اخذت هي تقاومه بضعف.

«هيا، يا حبيبتي، انك تعلمين انك ترغبين بي قدر رغبتي أنا بك.»

«كلا، قلت لك دعني اذهب.»

«ادعك تذهبين؟ ليس الآن يا حلوتي.» وسمعت ضحكته، ضحكة رجل قد انتصر في غزوته، وبقوة اوقدها اليأس، نفضت ذراعيها منه بعنف، واستدارت لتهرب، وإذ منعها الذعر من أن ترى طريقها جيداً، تعثرت بالكرسي وقبل ان تتمالك نفسها، كان آل قد وقع عليها.

آه، لماذا لم تسمعها مايبيل. وعندما فتحت فمها لتصرخ، اطبق هو بيده على فمها، وعند ذلك تذكرت وقد

تملكها الرعب، ان هذا النهار هو عطلة مايبيل، وان ليس هناك من ينقذها.

اغمضت عينيها وهي تحاول بجنون ان تحمي نفسها بيديها، وعند ذلك فجأة، إذا بجسمه يرتفع عنها.

«الويل لك...»

سمعت صرخة دهشة خافتة تصدر عنه، وبعد جزء من الثانية تبعتها صرخة حيوانية حافلة بالألم، وعندما فتحت عينيها، رأت من خلال شعرها المتشابك، آل واقفاً على قدميه وقد أمسك به براند على مدى ذراعه، تماماً كما كان آل قد فعل معها منذ دقائق، ثم اخذ ينهال بلكماته على وجهه غير الحصين إلى ان رأت الدم يتدفق من شفته العليا، وعينه اليمنى تغمض.

في هذه الحالة قد يقوم براند بأي عمل، فقفزت من الفراش، وذلك لما شعرت به من خوف حقيقي عليه: «كلا يا براند، دعه انك... انك ستقتله.»

وأمسكت بذراعه، ولكن وجهه كان مايزال مضطرماً بالغضب فنفض يدها عنه، ولكن تدخلها خفف من لهيب غضبه نوعاً ما. وبعد لكمة أخيرة، توقف، تاركاً آل يبتعد عنه عاجزاً مترنحاً، بينما كان هو يلوي شفته باحتقار، قائلاً: «ربما هي على حق، فأنت لا تستحق ان الطخ يدي بدمك.»

ثم توارى خارجاً من الباب يجر آل وكأنه يحمله حملاً، فقفزت فيليسيا خطوة خلفهما، وإذا بها تشعر بالدوار فصدرت عنها صرخة خافتة ثم ارتمت على السرير والغرفة تدور حولها.

«غطي نفسك.»

لم تكن انتبهت إلى عودة براند حتى سمعت صوته. وعندما اخذت تحدق فيه بتبلد، التقط ثوبها القطني وألقاه عليها، فارتدته بلهفة بيدين مرتجفتين. وعندما رفعت بصرها اليه مرة أخرى، كان ينظر من خلال النافذة وظهره اليها، فشعرت نحو ذلك الظهر القاسي الحازم بخوف اكثر مما شعرت به عند هجوم آل عليها.

أخذت تقول وهي ترتجف: «براند... انني...» ثم سكتت فجأة عندما استدار ببطء ليواجهها، أخذ ينظر اليها طويلاً بينما جعلت ملامحه قلبها يرتجف.

أجابها بصوت كالصوان: «ماذا تريدين؟»

ماذا تريد؟ انها تريده هو ان يأخذها اليه مواسياً، كما فعل يوم وفاة جدها، ان يبدد خوفها ويخبرها بأنها اصبحت الآن آمنة، ولكن عندما جاء ليقف محدقاً اليها بعينين كئيبتين، أدركت ان المواساة هي آخر ما عليها أن تنتظر منه الآن.

خلف ذلك القناع الشاحب والعينين الرماديتين الجافتين، كان يكمن غضبه الملتهب، لم تره قط من قبل في مثل هذا الغضب، كانت قواها قد انهارت بهجوم آل عليها ما جعلها تنكمش خائفة من أي مواجهة، كل ما كانت تستطيعه هو النظر اليه بصمت، وهي تبعد شعرها عن جبينها بحركة آلية، وإذا بها فجأة تضع قبضتها على فمها.

فقال لها: «ما بك؟»

فكرت في انها تريد منه ان يواسيها، ولكنها قالت له: «اشعر بالغثيان.»

«انها الأعراض المعتادة، يا عزيزتي... عند الشعور بالإحباط.» كان صوته أشبه بلسع السوط على جرح مفتوح، فأجفلت.

«اتعلمين انني كنت على وشك ان انخدع بك...»

فهمست: «ماذا... ماذا تعني؟»

«ماذا أعني؟»

ودون إنذار تحطم الجليد، فتقدم نحوها ووضع يده أسفل ذقنها يرغمها بذلك على رفع وجهها، كانت رؤوس اصابعه متشققة... فرأت عليها آثار دماء، ومالبثت ان شعرت بها لزجة على ذقنها.

«اخبريني يافيليسيا كيف استطعت ان تبقي شريفة طوال تلك الأشهر الأربعة؟ حسناً؟» وعندما لم تجب هز رأسها بوحشية.

«انني... لم افهمك، يا براند.» وتهدج صوتها وهي تلفظ الكلمة الأخيرة.

«... حتى اللحظة التي غادرت فيها الجزيرة... أو ربما لم تفكري في ان تكوني شريفة قط.» وتابع يقول وكأنه يحدث نفسه: «ربما في الوقت الذي كنت اظن فيه ان سلوكك كان حسناً، كنت انت اكثر مهارة مني، هل كان الأمر كذلك؟ هل كنت تتسللين في الأنحاء، تفعلين ما تريدين، مستعملة الحذر البالغ لتغطيه آثارك.»

كانت الصورة المريعة التي صورها بها قد اخترقت الآن ذهنها المذهول: «آه، كلا...» وحدقت به بضراعة: «كلا يا براند، هذا غير صحيح، أقسم لك.»

فلوى شفتيه قائلاً: «آه، يا لهاتين العينين البريئتين،

الرائعتين، لا تقسمين بشيء... لا أراك تريدين أن تضيفي قسماً كاذباً إلى اعمالك السيئة هذه، أليس كذلك؟»

كان يقتلها في اعماقها، ولكن عليها ان تواجه ذلك بأي شكل، ان تجعله يعلم بأنها بريئة.

«براند.» وقفزت من سريرها وتشبثت بذراعه: «لم يكن الأمر كما بدا لك حين دخلت... يجب ان تصدقني.»

وعندما استمر في صعقها بنظراته الثلجية تلك، اخذت تهز ذراعه بسرعة: «لقد قابلت آل صدفة على الشاطىء، فدعاني إلى الغداء، وإذ كنت اشعر با... بالوحدة.» وتلعثمت وهي تتلفظ بهذه الكلمة: «قبلت دعوته، وعندما احضرني إلى البيت، دعوته إلى فنجان قهوة، ثم...» وسكتت وقد تملكتها التعاسة وهي تتذكر ما حدث.

«وطبعاً، كنت معتادة على تقديم الضيافة في غرفة نومك.» واشار برأسه بوحشية إلى حيث كان الصينية مازالت على المنضدة. «الساعة الثالثة بعد الظهر، في رداء الحمام عارية.»

فقالت وقد جفت شفتاها من الخوف: «كلا، لقد فهمت كل شيء خطأ، لقد صعدت إلى هنا لأجل دوش سريع فقط.»

ولكن حتى في أذنيها رأت ان صوتها كان ينقصه الاقناع. آه، ما الفائدة؟ مهما قالت لن يصدقها براند، ولكن ولو لأجل كرامتها عليها ان تجعله يسمع الحقيقة.

فتابعت كلامها: «يجب ان تصدق انني بريئة، مهما بدت لك الأمور.»

فقال متابعاً كلامه وكأنها لم تقل شيئاً: «اتعلمين، يا

حلوتي، لقد كنت اخبرتك في لندن بأنك لا تصلحين للعيش وحدك، ولكن ربما لم أكن على صواب.» وسكت برهة، ثم عاد يقول: «ربما الرجال هم الذين بحاجة إلى حماية عندما تكونين بجانبهم.»

«آه.» ومن خلال ضباب التعاسة التي كانت تسحقها جاء الغضب. «كيف تجرؤ على هذا الكلام؟» ثم رفعت يدها وصفعته على وجنته، وبعد ذلك ساد صمت ملتهب، باستثناء تنفسها السريع، ورأت وجه براند وقد أبيض من أثر الصفعة، ثم اصبح أحمر قاتماً، بينما ضاقت عيناه وتقبضت اصابعه عند جانبيه.

وإذ تملكها الذعر لما قد تكون تسببت به، اندفعت نحو الباب ثم خرجت منه وهي تصفقه في وجهه، ثم ركضت إلى الشرفة هابطة السلم نحو الحديقة، فإذا امكنها ان تصل إلى الأجمات الكثيفة التي تحيط بالفناء، فستكون آمنة في مخبأ هناك مازالت تتذكره منذ طفولتها.

ولكن ما ان توارت بين سيقان الخيزران المتشابكة، حتى شعرت بيديه تمسكانها من الخلف، وإذ شعرت بالاختناق واخذت تحاول التنفس، لم تستطع ان تتكلم. ولكن براند، متجاهلاً رعبها هذا، وكأنها ليست سوى عصفور صغير وقع بين يديه، حملها فوق كتفه عائداً بها مجتازاً الفناء إلى حيث ألقى بها في سيارته، ثم قفز إلى مقعده بجانبها، وهو يتنفس بعنف. بينما رأت هي، وقد زاد من رعبها انها كانت قد قطعت زرين من قميصه الحريري الأبيض، تاركة مكانهما ممزقاً وذلك اثناء مقاومتها له، ودون كلمة حتى ولا نظرة في اتجاهها، أدار المحرك بعنف، منطلقاً

بالسيارة مثيراً خلفه زوبعة من الحصى والغبار. وعندما وصل إلى الطريق العام زاد من سرعة السيارة، وعندما جعلت السرعة فيليسيا تكاد تموت خوفاً، التقط هاتف السيارة وأدار رقماً.

«براند كارادين يتكلم، هل بإمكاني ان اتحدث إلى جيم بيلي..؟ حسناً، عندما يعود اعطيه خبراً من فضلك، اخبريه بأن وصيتي، نعم فيليسيا ناوتون، هي معي، فهل بإمكانه ان يرسل إلى بيتها من يقفله في حالة تأخرت مديرة المنزل عن العودة؟»

وقرقع صوت في الطرف الآخر من الخط اجاب عليه براند بنفاد صبر: «نعم، هذا صحيح، لن تكون في بيتها هذه الليلة.» ثم اقفل الخط.

لن تكون في بيتها هذه الليلة؟ ما الذي تراه سيفعل بها؟ لقد كان خطفها مرة من قبل، وفي ذلك اليوم اخذها إلى شقته، ثم بعد ذلك قطع بها خمسة آلاف ميل إلى هنا... كانا الآن يسيران في طريق خليج فرنسي وهذا يعني انهما ذاهبان إلى منزله.

أخذت تتمتم باستياء: «اظنك ستسجنني وتقيدني بالسلاسل وتضعني في القبو وأقتات على الخبز والماء.»

«ليس لدي قبو، لسوء الحظ.» قال هذا دون ان يحول عينيه عن الطريق.

وعند وصوله إلى بيته تناول سترته الملقاة في المقعد الخلفي، ثم خرج من السيارة، ولكن عندما خرجت هي أيضاً، بعد ان انتظرت بقدر ما جرؤت عليه، كان قد اخرج

من صندوق السيارة حقيبتين، فحدقت فيليسيا اليهما، لا بد انه كان قد جاء من المطار مباشرة إلى منزلها... وكأنه كان يريد ان يقبض عليها بالجرم المشهود، كما اخذت تفكر، وتوترت شفتاها وهي تشعر بطعنة ألم مفاجئة.

كان تشانغ قد جاء فاستطاعت ان تمنحه ابتسامة رقيقة. وبعد، ما ننبه هو إذا كان سيده اكبر جرذ مخيف في الجزيرة؟ ثم اخذت تنظر إلى براند وهو يناوله الحقيبتين ثم يقول له، بصوت خافت شيئاً لم تستطع سماعه.

وعندما تبعتهما صاعدة الدرج، التفت اليها قائلاً: «انتظري هنا، فأنا لا اضمن عدم هربك مرة أخرى.»

«أحقاً؟»

وبادلته النظر متحدية، ولكن ما ان ابتعد حتى هبطت كتفاها، واخذت تنظر حولها بفتور وكأنها تبحث عن وسيلة للهرب، ولكن لم يكن ثمة فائدة، فهي وبكل بساطة لا تجرؤ على ذلك، والأسوأ من ذلك انه هو أيضاً كان يعلم بعدم جرأتها هذه.

بعد ذلك بخمس دقائق، عاد براند وكانت هي متكئة على السيارة باكتئاب، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها، كان قد غير قميصه فارتدى قميصاً قطنياً أبيض، ولكنه لم يكلف نفسه عبء اقفاله من أعلى، كما كان قد وضعه تحت الشورت الذي يرتديه وذلك بشكل غير منتظم، ثم قال باقتضاب وهو لا يكاد ينظر اليها: «من هذا الطريق.» ثم اخذها إلى ناحية الشاطىء.

كان الطريق المرصوف بالحصى يؤدي إلى رصيف

بحري حيث كان المركب البخاري مازال مربوطاً، فقفز براند إليه ثم التفت إليها: «أدخلي.»

فنظرت اليه: «ما الذي تفعله؟»

«ماذا تريدني افعل؟ اننا ذاهبان في نزهة.»

«اننا على الأغلب...»

«ادخلي... وإلا جررتك من قدميك.»

وعندما اخذت تنظر حولها بقلق وقد التفت اصابع قدميها على حافة الإسمنت، مد يده يمسك بيدها ثم جذبها بمهارة جعلتها تستقر على سطح المركب بجانبه.

استندت بظهرها إلى الدرابزين ثم اخذت تنظر اليه وهو يدير المحرك لينطلق بعد ذلك بالمركب مبتعداً عن الرصيف إلى حيث المياه الصافية، حيث اخذت الأمواج الخضراء تهدر حوله.

ضغطتها الريح على المقعد فتشعث شعرها وتمزقت انفاسها، فانحنت بشكل آلي تخرج وشاحاً من حقيبتها، واذا بها تتذكر ان ليس هناك حقيبة ولا وشاح، لا شيء، حتى ولا ملابس، لا شيء سوى ثوبها القطني الأبيض، وإذ شعرت بوجهها يتوهج، لفت ثوبها حول جسدها بشدة، لا حذاء أيضاً، ولأول مرة تنتبه إلى قدميها الملوثتين بالتراب واللتين تملأهما الخدوش الناتجة عن ركضها خلال الأجمات اثناء هربها منه.

رفعت بصرها إلى الرجل الواقف عند الدفة، وكانت الريح تلفح قميصه المفتوح.

وإذا بها تشعر فجأة بشيء يدفعها إلى النهوض والتقدم نحوه، فتريح رأسها على كتفه وتبكي ما شاء لها البكاء،

ولكن نظرة منها إلى فكه المتحجر، وشفتيه المتوترتين وهو يحدق امامه، جعلتها تحول نظراتها هي أيضاً إلى الأفق البعيد.

ظهرت امامهما الآن جزيرة صغيرة لا بد انها احدى تلك الجزر غير المسكونة والبعيدة عن الساحل، دون شك، وشيئاً فشيئاً، تحول ذلك الظل المبهم إلى شريط اخضر ثم إلى شاطىء تحف به أشجار النخيل، وسرعان ما لمحت فيليسيا رصيفاً خشبياً كانا يتقدمان اليه بسرعة. اوقف براند المحرك، ثم ألقى حبلاً وقفز إلى حيث ربطه إلى مرساة خشبية.

«هيا، اخرجي.»

«هنا؟ ولكنك قلت اننا سنذهب في نزهة.»

«لقد قمت بنزهتك فعلاً، والآن اخرجي.»

اشاحت بوجهها غاضبة من لهجته المتعجرفة وقد تملكتها رغبة في التمرد عليه، وذلك بأن تقول: «كلا.» ثم تبقى هنا، ولكن عندما عبس وتحرك نحوها مهدداً، خرجت وتبعته كارهة إلى حيث سارت على لوح خشبي مؤقت ومن ثم على الرمال الدافئة البيضاء.

ودون ان ينظر اليها، انطلق صاعداً إلى الشاطىء، ولكن فيليسيا تخلفت عنه، كان ثمة شيء متعمد، نوع من الصمت الملتهب بما يتعلق به.

وعندما تملكتها قشعريرة، التفت إليها: «هيا اسرعي.» وكان صوته مازال متوتراً.

ولكنها ضربت الأرض بقدمها: «كلا، لا أريد، اقسم بأن لا اتحرك من هذه البقعة قبل ان تخبرني بما يجري.» لم

تستطع ان تكبح رجفة الخوف التي بدت في آخر كلماتها وهي تراه يعود ببطء اليها ثم يقف يحدق فيها وقد عقد حاجبيه الأسودين بينما اتسعت عيناها وهي ترى اثر الصفعة على وجنته مازالت ظاهرة.

وعندما لم يتكلم كررت سؤالها: «ما الذي يحدث هنا؟ ولماذا...» ونظرت حولها فلم تجد سوى الصمت. «... احضرتني إلى هنا؟»

فهز كتفيه: «انني بحاجة إلى مكان أمضي فيه الليلة لكي أقرر ما افعله معك. ورأيت هذا المكان مناسباً.»

«ولكن ليس لك الحق على الاطلاق ان...»

«ولماذا لا؟ انها جزيرتي.»

فنظرت اليه غير مصدقة: «ماذا؟ اتعني انها ملكك؟»

فابتسم وهو يجيب عابساً: «ما أسرع فهمك، عندما تحاولين ذلك حقاً.»

«ولكن... ولكنك لم تذكر هذا قط.»

«ولماذا اذكره؟ وانت أيضاً لم تخبرني شيئاً عن... علاقاتك الخاصة.»

«والآن، اسمع...»

«ويمكنك ان تعتبري نفسك قد حصلت على امتياز رفيع، يا عزيزتي فيليسيا، فانا عادة لا اخبر الناس عن هذا، وليس عدم احضارهم إلى هنا فقط، اما في حالتك فقد قمت بأمر استثنائي.»

«حسناً، هذا أمر عظيم منك.»

«أسكتي.»

ورغم انه قال هذه الكلمة بهدوء، فقد كان هو الصوت

الذي كان تحدث به إلى لازلو وآل، وهكذا سكتت على الفور، ولكنها أرضت نفسها بالعبوس في وجهه، لم يتحدث إليها رجل قط، أو يعاملها بالطريقة التي يفعل بها هذا الرجل. لقد كان الرجال دوماً بالغي اللطف معها ومتسامحين، حتى آل نفسه قبل ان يحدث ذلك المشهد الفظيع في غرفتها، كان اكثر لطفاً بكثير من هذا... هذا المتوحش الذي لا يطاق والذي لن يتعلم أبداً كيف يجب ان يكون.

وتابع هو يقول ومازال صوته يحمل تلك النبرة المتوعدة بالشر: «كما قلت، أنت ستمكثين هنا الليلة، إلى ان اقرر ما هو افضل شيء افعله بك.»

«الليلة؟ كلا، انتظر.» وكان هو يبتعد وقد بدا عليه الضيق، ولكنها كانت تذكرت شيئاً فجأة: «لا يمكنك ان تبقيني هنا الليلة، ان لدي موعداً.»

فلوى شفتيه ساخراً: «أحقاً، لا بأس، ليس امامك سوى ان تخلفي آل مرة أخرى، أليس كذلك؟»

لم يمنعها من ضربه مرة أخرى سوى الخوف، فقالت: «كلا، ليس معه، لم يسبق ان كان لي موعد معه قط، رغم انني لا أتوقع منك ان تصدقني، اذا كان لا بد ان تعلم، فهو مع سكوت.»

«حسناً، ليس امامك سوى ان تخلفي الموعد.»

«انني لا احتمل هذا.» وارتفع صوتها: «اظن هذه فكرتك عن عقابي... بإلقائي هنا طوال الليل.» وتحولت عيناها إلى صف الأشجار القاتمة اللون، والظلال السوداء الممتدة على الشاطىء إلى حيث كانا يقفان تقريباً، وقاومت رجفة تملكتها.

«أتعلم؟ انك شخص منحرف ومتغطرس، يستمتع بتعذيب الآخرين.»

«اظنك استعملت الكلمة الخطأ، يا عزيزتي، فأنت لا بد تقصدين كلمة سادي.»

فردت بحدة: «وتلك الكلمة أيضاً.»

«ولكنك لن تبقي هنا وحدك، انا سأكون معك.»

فحدقت فيه بذهول: «ولكن... ولكنك لا تستطيع.»

«لا استطيع؟» واطلق ضحكة جافة: «يبدو لي انك بحاجة إلى من يذكرك بشيء ما، فأنت مازلت وصيتي، ولمدة ثلاثة اسابيع أخرى فقط، لحسن الحظ، وإذا كان الوصي قد اكتشف ان وصيته في خطر اخلاقي خطير...»

«أنا لم اكن..» ابتدأت بهذا القول رغم قلة قناعتها بينما كان هو يتابع: «فله كل الحق، قانونياً، بالقيام بما يراه ضرورياً لحمايتها، عند الضرورة، من نفسها.»

تملكها شعور عارم بالظلم إلى حد اوشكت معه ان ترجوه ضارعة، ولكنها بعد كل ما لاقته على يديه من إذلال، لن تمنحه ذلك الشعور بالشماتة. وبدلاً من ذلك، استقامت في وقفتها ورفعت رأسها بكبرياء، اذا كان دوماً لا يصدق عنها سوى السوء، فليكن إذن.

واستجمعت كل امكانياتها في التمثيل، وهي تقول: «نعم، انك على حق تماماً، يا براند، لقد دعوت فعلاً آل إلى بيتي، وطبعاً أردته ان يكون معي في غرفة النوم، وعند ذلك دخلت انت.»

وخلال الرعب الذي اوجدته فيها كلمتها الاستفزازية،

تملكها شعور ضئيل بالشماتة وهي ترى الشكوك في ملامحه تستحيل إلى عبوس هائل.

وعندما اخذ ينظر اليها صامتاً، قالت: «حسناً، هل ينفع هذا؟ وبعد فهذا ما تريدني ان اقوله، وهو ما تظنه بي، أليس كذلك؟»

عندما وصلت إلى نهاية حديثها، رأت وجهه يشحب، ويديه تتقبضان، وعند ذلك، استدار على عقبيه ومر أمامها صاعداً إلى الشاطىء.

الفصل الثامن

وقفت فيليسيا تنظر إلى براند إلى ان توارى بين الأشجار عند ذلك تهالكت على الشاطىء محتضنة ركبتيها، ولكنها ما لبثت ان قفزت واقفة وقد منعها الاضطراب من ان تبقى هادئة، ثم أخذت تسير جيئة وذهاباً، وتكرر ذلك وهي تنبش الرمال بأصابع قدميها غاضبة.

اخذت الشمس بالغياب وهي تنظر اليها تتوارى وراء الأفق، وعلى الفور استحال البحر إلى لون الرصاص، وعلى اليابسة، كان الشفق يصبغ رؤوس الأشجار والتي انبعث من بينها حفيف خافت، أهو جرذ؟ أم هي سرطانات بحرية تتسلل من جحورها؟ كلا، ان الاحتمال الأكبر هو ان تكون أسراباً من الطيور تستقر في اعشاشها لقضاء الليل...

عاد الحفيف، فأرغمت نفسها على نبذ الخوف الذي تملكها... من المستحيل ان تتمكن من البقاء هنا على الشاطىء وحدها، ومع ذلك كيف تحتمل اللحاق ببراند، معرضة كبرياءها الجريحة إلى المزيد من تعنيفه وسخريته؟

انهالت على خديها دموع اليأس، وعندما مسحتها رأت شيئاً صغيراً يخرج من بين الواح الرصيف الخشبية المهترئة ومن ثم توارى في الظلام.

اطلقت صيحة مختنقة: «براند!» ثم اخذت تركض صاعدة إلى الشاطىء متعثرة على الممر الذي كان سلكه.

اندفعت خلال مجموعة من اشجار اللوز فرأت على هضبة صغيرة تشرف على البحر منزلاً صغيراً من طابق واحد مبنياً من الواح خشبية بيضاء، لم يكن هناك أثر لبراند، ولكنها صعدت الدرجات الخشبية إلى الباب، ثم دفعته بتردد.

انفتح الباب مباشرة على غرفة جلوس فسيحة مؤثثة بأريكة خشبية وكراسي مغطاة ببطانيات ذات الوان هادئة، ومنضدة قهوة عريضة من الخيزران والزجاج وبساط مكسيكي ذي لون أسود وبني فاتح اللون يغطي الأرض المصقولة، كما كان معلقاً على الجدار صورتان لمنظر البحر، وعندما وقفت هناك تنظر حولها، انتبهت إلى صوت همهمة آتياً من خلال النافذة، ربما كان هذا مولد الكهرباء والذي يزود هذا المنزل المنعزل بالطاقة... ولكن هذا الصوت اضاف مزيداً من الرهبة إلى هذا السكون.

كان في نهاية الغرفة باب واحد، وكانت تحدق في الباب تحاول تخمين ما يؤدي إليه، عندما سمعت حركة خلفه ففتحته مترددة لتجد نفسها في مطبخ تام المعدات. وكان براند فاتحاً الثلاجة يخرج منها قطعتي لحم.

قال لها دون ان يلتفت اليها: «كيف تريدين ان يكون طعامك؟»

ابتدأت تقول: «انا لا أريد...» ولكنها عندما عبس في وجهها أسرعت تقول: «اللحم ناضجاً جداً.»

«هل لك ان تعدي المائدة؟ انها في الشرفة، وستجدين الأشياء هنا.»

وأشار إلى خزانة في الحائط، ثم عاد إلى الثلاجة يخرج

منها نصف دزينة خبز رول وخضار مثلجة، وعندما نظر من فوق كتفه، كانت لم تتحرك بعد.

«ألم تسمعيني؟»

فابتسمت له بجفاء قائلة: «لقد سمعت، ولكن اطلب مني ذلك بطريقة لائقة.»

أخذ يتمتم بشيء بصوت خافت ما جعلها مسرورة لأنها لم تسمعه ثم قال: «ارجوك ان تعدي المائدة من فضلك.»

«نعم، هكذا. انني لم ازعجك كثيراً أليس كذلك؟»

قالت ذلك ثم اتجهت إلى الخزانة...

• • •

«هممممم...»

عند ذلك أزاحت فيليسيا طبقها الفارغ ورفعت بصرها واذا بها ترى شيئاً اشبه بالهزل في عيني براند، فقالت ببرودة: «ان النزهة في البحر تمنحني الشهية على الدوام، ولكن على كل حال اظن عليّ ان اكون شاكرة لأنك لم تجوعني لكي تخضعني.»

«لا اظن ان شيئاً ينفع معك ولو كان التجويع.»

أخذ الأطباق إلى المطبخ ثم عاد بسلة تحتوي على فاكهة، وضعها بجانبها.

«مانغا؟ ما اجمل هذا، هل هنالك اشجار قريبة من هنا؟»

«يوجد عدة شجرات، وكان بعضها هنا عندما اشتريت الجزيرة، وقد زرعت المزيد منها، وكذلك من الموز الصيني والليمون، وشجرة أكا، وهذه لم اكن من الشجاعة بحيث اجربها.»

فقالت بجد: «كلا، حسناً، عليك ان تكون على حذر بالغ بالنسبة إلى الأكا، فقد تتسمم منها، ان بإمكاني..»

وسكتت ثم تناولت حبة مانغا كبيرة من السلة واخذت تقشرها بسرعة، فقد كانت على وشك ان تقول: ان بإمكاني ان أريك غداً لأن مايبيل علمتني. ولكنها لن تكون هنا غداً، وعلى كل حال كان منظر براند ملقياً على ظهره، بعد تسممه بثمار الأكا، مؤقتاً طبعاً، وذلك بعد وليمة سيئة الطهي من ثمار الأكا، كان شيئاً بهيجاً للغاية.

سألها: «اتحبين المانغ؟» فنظرت إليه تجيبه وهي تلتهم الثمرة: «نعم، فهي المفضلة عندي.»

«لا تقلقي، فهناك الكثير منها.»

«طبعاً...» وكان انتباهها موجهاً إلى خيط من العصير كان ينساب إلى معصمها، وهي تتلقاه بطرف لسانها، فقالت دون تفكير: «يقولون هنا ان افضل طريقة لأكل المانغا هو ان تأكلها فوق مغسلة، وهذا ما افعله غالباً في البيت.»

سكتت وهي تشهق للصورة الذهنية التي وضعتها واخذت تحدق عبر المائدة إلى براند والذي كان هو أيضاً يحدق فيها.

ألقت عليه أول سؤال خطر ببالها لتغير الموضوع: «لماذا اشتريت هذه الجزيرة؟»

أجاب بصوت جامد: «للعزلة.» فأخذت تفكر فيه جالساً على هذه الشرفة وقد مد امامه ساقيه، محدقاً في البحر، وكل شيء رائع الجمال إنما خالٍ... وشعرت فجأة بما يشبه العطف.

ولكنها اخذت تحدث نفسها غاضبة بأن شخصاً مثل براند

لا يحتاج إلى عطف احد، فإذا كان وحيداً، فهذا اختياره هو... وما يريده، وبعد فهذا ما كان عليه عند قدومه إلى هنا لأول مرة. ألم يعش هكذا في سومبرا؟ أشبه بانعزالي مجنون أو ما اشبه...

وعاد هو يقول: «ولأنني احب الغوص أيضاً، والشعاب المرجانية في هذه الناحية رائعة للغاية...» وسكت لحظة ثم تابع يقول: «هذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني أزور جدك في ذلك النهار... كانت نصيحته هي التي جعلتني أصمم على شراء هذه الجزيرة، كان الشخص الوحيد الذي اعتاد أن يمكث معي في هذا المكان، حتى هذه الليلة...» قال ذلك بلهجة طبيعية عندما نظرت اليه بسرعة من تحت اهدابها.

مد يده إلى حبة من الفاكهة وهو يتابع قائلاً: «لقد اخذت صوراً فوتوغرافية لقاع البحر خلال السنتين الماضيتين، وأنا اخطط لفيلم تلفزيوني عن الشعاب... وهذا هو السبب في سفري إلى نيويورك... وكذلك تأليف كتاب بهذا المعنى، آه لا تقلقي.» وتابع بسرعة: «ولكن هذا لن يأخذ مكان كتاب جدك... اذ لا شيء يمكن ان يأخذ مكانه، ولكنني أرجو بطريقة ما، ان يكون تكملة للكتابة.»

فقالت ببطء وقد تقوست شفتاها الممتلئتان بابتسامة: «فهمت، وانا واثقة من ان جدي سيكون مسروراً، يا براند، لقد كان يحبك كثيراً.»

«نعم... حسناً.» وذهلت وهي ترى شفتيه ترتجفان وكأنها قالت شيئاً غير سار، ثم وقف بحركة مفاجئة وهو يسألها: «قهوة؟»

ولكن الصد المقتضب لغصن الزيتون الصغير الذى

عرضته عليه لتوها، والذي يدل على السلام والهدنة بينهما، قد آلمها جداً، فأشاحت بوجهها كيلا يرى لمعان الدموع في عينيها: «كلا، شكراً، سأغسل يدي أولاً، وبعد ذلك احب ان انام، فأنا متعبة جداً.»

ولكن عندما وضعت يدها على أقرب صحن اليها، تريد رفعه، أزاح يدها جانباً وهو يقول: «دعي عنك ذلك، فأنا سأقوم بهذا الأمر فيما بعد.»

عندما كانا قد اخذا يتحدثان اثناء تناول الفاكهة وذلك بشكل اقرب إلى المودة، دهشت وهي تجد نفسها شبه راجية ان يقترح عليها ان يغسلا الأطباق معاً، ولكن الحقيقة طبعاً هي ان لهفته كانت للتخلص منها بقدر ما كانت هي ترغب في الابتعاد عنه.

تبعته فيليسيا حين نهض عن كرسيه، عند ذلك فتح براند باباً ثم اشعل الضوء: «هذه غرفتي أما غرفتك فمن خلالها.» ثم فتح باباً آخر فظهر حمام: «اننا نشترك في هذا، وعليك ان تدخلي وتخرجي من خلال غرفتي مع الأسف.»

«آه، لا تعتذر.» كانت أعصابها متوترة ما جعلها حادة الطبع، كيف يمكنها ان تنام قريبة منه بهذا الشكل، لا يفصل بينهما سوى الحمام؟ وتابعت تقول: «وعلى كل حال يبدو ان من المستحيل عليّ الهرب، ولهذا يمكنك ان تستمتع بنوم جيد مريح.»

«هذا صحيح.» ولكنه بدا وكأنه لم يكد يسمعها، واشعل مصباحاً قرب السرير فرأت انهما في غرفة ضيقة لا تتسع لغير السرير الذي كانت فوقه كله، وكذلك خزانه بأدراج، ثم استدار يبغي الخروج.

«كلا، انتظر من فضلك.» وعندما عاد متباطئاً، قالت وماتزال لهجتها على شيء من الغضب: «يظهر انني اضعت أمتعتي، هل من الممكن ان تجد لي شيئاً ارتديه لأنام فيه؟»

فألقى نظرة خاطفة على ثوبها القطني: «إذا أردت شيئاً ترتدينه للنوم، فخذي هذا.» ثم أخذ يفك أزرار قميصه.

فقالت حانقة: «كلا، لا اريد، قد لا يهمك كيف أبدو، ولكنني اهتم بذلك، وانا أرفض العودة غداً إلى المدينة وانا أبدو وكأن هناك من جرجرني فوق الأسيجة إلى الخلف، ويكفي ما هو عليه ثوبي من تكرش الآن... انظر.»

وامسكت ثوبها قليلاً، ثم انزلته بسرعة وقد توهج وجهها خجلاً.

فقال: «ولكن اذا شئت...» ثم ابتدأ يخلع قميصه.

«كلا، لا يمكنني ان...» وسكتت باضطراب حين ناولها إياه وهو يقول: «هذا أو لا شيء.»

«حسناً، لا بأس.» قالت ذلك كارهة، ولكن عندما تقدمت منه لتأخذه اجفلت فجأة. فسألها: «ما الذي حدث؟»

«آه، لا شيء، كل ما في الأمر انني كنت خدشت قدمي على الشاطىء... ولا بد انني دست على صدفة أو ما اشبه.»

«دعيني ألقي نظرة عليها.»

«كلا، فهي لا أهمية لها...»

«اجلسي على السرير ثم دعيني انظر إليها.» وعندما اطاعته مرغمة، جلس على الأرض امامها ممسكاً بقدمها، ثم اخذ يضغط عليها متفحصاً، برفق جعلها لا تجفل عندما ضغط على الجلد الممزق في ظاهر القدم، حيث كان الدم مازال ينز قليلاً.

قال بغضب: «كيف احدثت هذا بقدمك؟»

«آه، لقد اخافني شيء ما، واظنه جرذ، عندما تركتني على الشاطىء، كنت... كنت اركض بحثاً عنك.»

«يا لك من طفلة.»

ورفع نظره إليها، وكان وجهاهما لا يفصل بينهما اكثر من سنتمترات قليلة، فارتجفت شفتاها، وللحظة خاطفة بدت رعشة في وجهه الصارم، عند ذلك وضع قدمها على الأرض ثم وقف يقول: «سأحضر اليك مرهماً مطهراً.»

«لا ضرورة لذلك في الحقيقة...» ولكنه كان قد اصبح في الحمام حيث سمعته يبحث عن شيء ما، ثم سمعت صوت ماء يتدفق ليعود بعد ذلك حاملاً وعاء وقطعة قطن، ثم جلس على الأرض مرة أخرى متجاهلاً احتجاجها وهو يأخذ في غسل قدمها المصابة.

استندت قليلاً إلى الخلف واخذت تنظر اليه، وهو مستغرق في عمله، كان الضوء الوردي المنساب من المصباح الموضوع بجانب سريرها، يلمع على بشرته السمراء وعلى كتفيه وصدره مضفياً على وجهه رقة هادئة لم تكن تظهر عليه في ضوء النهار، كما كانت برودة عينيه قد اختفت، وكل ما كانت تراه هو ظل اهدابه على وجنتيه بينما بدت شفتاه بالغتي الحساسية.

يا ليت هذه كانت حقيقة براند كارادين... وفجأة، وجدت فيليسيا نفسها تشتاق اليه وإلى هذه الرقة البادية فيه، ولكن كل هذا لنساء اخريات ولن يكون لها ابداً. اخذت تفكر في ذلك، شاعرة بتلك الطعنة من الألم تستقر في اعماقها مرة أخرى.

لا بد انه شعر بالرجفة التي مرت بجسدها، لأن يديه جمدتا على الفور، ثم قال: «اظن هذا يكفي.» ثم وضع قدمها على الأرض ونهض وهو يقول دون ان ينظر اليها: «لقد وضعت لك منشفة وفرشاة اسنان.»

فقالت: «اشكرك يا براند.» ولكن هذه الكلمات الرقيقة كانت تقولها للباب الذي كان يغلقه خلفه.

جلست فيليسيا فترة طويلة تحدق في لا شيء، ثم نهضت واقفة لتسير إلى الحمام على اطراف اصابعها، لم يكن ثمة ضوء يبدو من تحت بابه، لا بد انه مازال في الطرف الآخر من المنزل، اغتسلت بسرعة ثم رجعت إلى غرفتها وخلعت ثوبها وعلقته بعناية على مشجب خلف الباب.

ثم تناولت القميص واخذت ترتديه... كان ما يزال دافئاً من جسمه وبإمكانها ان تشم فيه رائحته وذلك العبير الخفيف من عطر ما بعد الحلاقة، كان في ملامستها القميصه، ورائحته تلك ما جعلها تشعر فجأة بالاضطراب فأخذت تقفله بسرعة ثم قفزت إلى السرير غطت نفسها بالملاءة.

اطفأت المصباح ثم استلقت في الظلام، ملتفة بقميص براند ورائحته في خياشيمها، ومن ثم اخذ النوم يتسلل إلى ما بين اجفانها شيئاً فشيئاً...

• • •

عندما خرجت إلى الشرفة في الصباح التالي، كان براند قد سبقها إلى هناك وجلس إلى المائدة وبجانب مرفقه إبريق القهوة وطبق من الخبز الساخن والكعك والزبدة وإناء يحتوي على عسل.

قالت له وهي تجلس على كرسي امامه، محولة عينيها عنه: «صباح الخير.»

فأجاب وهو يمضغ طعامه: «صباح الخير»، ثم تابع تسجيل ملاحظات في ملف بجانبه.

زمت شفتيها امتعاضاً وهي تكبح رغبة تملكتها في الانفجار من توترها، كانت قد دهشت لرقادها الجيد ذاك، ما جعلها تستيقظ شاعرة بالسعادة والراحة بشكل غريب، فجاءت إلى هنا لتري براند ان ثمة جانباً في شخصيتها حسن حقاً، وان العبوس هذا الصباح على الأقل، قد اصبح شيئاً من الماضي، إنما الآن وهو يرشف قهوته ويتابع تسجيل ملاحظاته، شعرت بمزاجها وقد اخذ يتملكه الفتور نوعاً ما.

اخترق الصمت اخيراً بقوله دون ان ينظر اليها: «كيف حال قدمك؟»

أجابته بصوت منخفض: «في أحسن حال، شكراً، انها لم تؤلمني على الاطلاق.»

سكبت لنفسها فنجان قهوة، ثم تناولت كعكة غطتها بالزبدة والعسل، بينما اخذ قطعة ورق وقلماً دفعهما نحوها وما زال محولاً نظراته عنها.

فسألته بتبلد: «ولماذا هذه؟»

«اكتبي قائمة.»

«قائمة؟ ما الذي تتحدث عنه؟»

«ملابس، أدوات زينة... أي شيء آخر قد تحتاجينه من بيتك، وأي شيء من السوق، طبعاً.»

حملقت فيه برعب، ثم قالت بصوت مختنق: «اتعني... انك لن تأخذني إلى بيتي اليوم؟»

«نعم.»

«ولكن إلى اين ستأخذني إذن؟»

«لن اخذك إلى أي مكان. انك ستبقين هنا.»

فقفزت واقفة: «كلا، لن ابقى، انني سأعود معك هذا الصباح... الآن.»

«آسف، ولكنك لن تذهبي.» ولأول مرة هذا الصباح، نظر اليها مباشرة وهو يتابع قائلاً: «انك لست أهلاً للثقة للعيش وحدك، ولهذا.»

«لا تقل هذا الكلام الفارغ، فانا طبعاً أهل للثقة، لماذا لا تستمع إليّ؟» وضربت المائدة بيدها بعنف جعل الأكواب تهتز.

فأشار إلى الورقة قائلاً: «اكتبي قائمتك، وإلا جعلت مايبيل ترسل لك ما تريده هي.»

نظرت إلى رأسه وهو يعود إلى كتابته، وتمنت لو بإمكانها ان تختطف ذلك الملف منه وتضربه به على رأسه دون شفقة، وتقبضت يداها بجانبها، ولكنها ما لبثت ان تمالكت نفسها فتهالكت على كرسيها، لم يكن ثمة فائدة من الجدال، وإذا كانت تعلمت شيئاً، شيئاً مؤلماً للغاية عن براند، فهو ان كل شيء... كل شيء يسير كما يريد هو، فالعالم يدور حوله، بينما يسير هو خلاله بخطوات واسعة دون ان يردعه شيء.

وعندما سحبت الورقة نحوها، قالت: «هل بإمكاني ان اعرف شيئاً؟ إلى متى ستحتفظ بي هنا؟»

«إلى الثاني والعشرين من شهر آب (اغسطس).»

«وبعد ذلك؟»

فنظر اليها مباشرة: «بعد ذلك تكونين حرة... تفعلين ما تشائين.»

عادت يداها إلى التقبض، لحظة، ولكنها استمرت تقول بصوت بارد كالثلج: «واظنك ستبقى هنا، أنت أيضاً؟»

«طبعاً، فأنا لن اعطيك فرصة تحاولين فيها التصرف دون عقل مثل السباحة هاربة، إذا لم اكن هنا لأجعلك تحت المراقبة.»

فشهقت بذعر، لقد صبرت على ما جرى أمس فقط، ولكن ان تكون وحدها هنا مع براند لمدة ثلاثة وعشرين يوماً أخرى، ليلاً ونهاراً...

التقطت القلم، واخذت تكتب بسرعة، وبعد عدة دقائق قذفته بالورقة والتي كانت طوتها بعناية، وعندما فتحها، اخذ يقرأها بصوت مرتفع: «ثياب داخلية... قمصان نوم... فساتين...»

«لا بأس، لا بأس... لا ضرورة لقراءة ذلك بصوت عالٍ. فهي مكتوبة.. هل نسيت؟»

طواها ووضعها في جيب بنطلونه، ثم ألقى نظرة على ساعة معصمه الذهبية، ثم قال: «يجب ان اعود في منتصف النهار.»

فردت عليه بحدة واستهزاء: «هذا عظيم، وانا سأنتظرك بكل لهفة.»

نظر اليها لحظة بعينيه الرماديتين، ثم قال: «آه، بالمناسبة لقد نسيت غسل الأطباق الليلة الماضية، هل لك بأن تغسليها، من فضلك؟»

كان بإمكانها ان تغسلها الليلة الماضية، ان لم يكن

بسعادة فبرضاها، خصوصاً اذا كان بجانبها يساعدها. وإذ تصورت هذا المشهد، عاد ذلك الانقباض إلى قلبها، ولكي تتخلص من الألم، صاحت تقول: «كلا، لا أريد.» ولكي تثبت كلامها، تناولت الطبق الذي يحتوي على الكعك وقذفته به فمر من جانب اذنه ثم استقر على العشب في الحديقة وقد تناثر منه الكعك في كل الاتجاهات.

في غمرة السكون الذي تبع ذلك سمعت بالاضافة إلى دقات قلبها، براند وهو ينفث نفساً طويلاً ببطء، ثم يقول: «يا له من عمل صبياني قمت به.»

وكان هذا صحيحاً، فهي لم تحدث لها مثل نوبة الغضب هذه منذ سنوات، ولكن هذا ليس عدلاً... فقد اخرج من اعماقها كل ما كان مدفوناً فيها من عدوانية، وذلك رغم محاولاتها المخلصة في التخلص منها.

وكان هو قد مزق الورقة التي كان يكتبها، ثم نهض واقفاً.

فقالت له: «اتعرف يا براند كاراين؟ انني اكرهك... اكرهك تماماً.»

فألقى عليها نظرة قصيرة: «هذا لا يهمني.»

«حسناً، اظنك اعتدت على ذلك.»

جوابها هذا لم يسمعه وهو يسير نحو الشاطئ. جمعت الأطباق، بعد ان ادركت ان لا مناص من ذلك، ثم اخذتها إلى المطبخ وألقت بها في الحوض، واخذت تغسلها، كان وجهها مازال متوهجاً غضباً، ولكن ما ان وضعت آخر طبق في الخزانة، حتى تذكرت التعبير الذي ارتسم على وجه براند وطبق الكعك يمر بجانب أذنه، فلوت شفتيها مبتسمة،

ولكن سرعان ما تلاشت الابتسامة. وحدثت نفسها قائلة بصوت عال: «يا لك من حمقاء، فهو رجل خطر... هذا ما شعرت به لوريتا منذ سنوات، وقد كنت رأيت تصرفاته عندما يثور غضبه، فكفى استفزازاً له، وإلا...» وبللت بلسانها شفتيها اللتين جفتا فجأة.

تركت من يدها المنشفة، ثم دست قدميها في خفين واسعين قديمين وجدتهما عند باب المطبخ، ثم خرجت تستكشف مكان سجنها.

www.elromancia.com

الفصل التاسع

بعد ذلك بثلاث ساعات بعد قيامها بدورات كاملة لم تستطع إحصاءها، كانت قد ابتدأت تعرف كل قطعة من الأخشاب التي كان المد جرفها إلى الشاطىء، وكل حبة من الرمال.

لقد استكشفت أولاً بستان فاكهة خلف المنزل حيث كانت اشجار براند مزدهرة، ثم ملأت يديها من فاكهة المانغا واخذت تتمشى على الشاطىء، غائصة في المياه الضحلة الدافئة غير مبالية برشاش الماء يبلل ثوبها وبالأوحال توسخ قدميها بينما كانت تلتهم الثمار.

كانت رأت اثار اقدام شخصين مازالت على الرمال منذ أمس، وبجانبها آثار اقدام شخص واحد متجهة ناحية البحر حيث أبحر براند اليوم، فاقتفت آثار اقدامه إلى حيث وصلت إلى الرصيف والذي بدا خالياً تقريباً، الآن من دون المركب البخاري، ثم تابعت السير على الشاطىء وقد تملكها شعور بالفراغ في مشاعرها.

في الطرف البعيد من الجزيرة التي قامت باستكشافها، وبين جذور اشجار القرام الاستوائية كان هناك عند حافة المياه، كوخ. وما ان لمست الباب حتى انخلع من مفاصله، وعندما اخذت تنظر إلى الداخل رأت في آخره زورقاً من النوع الذي يستعمله صيادو السمك المحليون، وربما كانوا بنوا الكوخ ليكون ملجأ في الأوقات التي كانت تعصف فيها

الرياح الشمالية الآتية من المحيط الاطلنطي، محيلة مياه البحر الهادئة الشفافة إلى زبد أغبر.

اخذت تدرس هذا الزورق بإمعان لعدة دقائق. لقد كان براند قال ان بإمكانها ان تسبح إلى اليابسة... حسناً ربما هذا الزورق بإمكانه ان يوصلها إلى اليابسة على الأقل، ولكنه كان يبدو واهياً خرباً... وهي لن تجرؤ على حشر نفسها فيه إلا بعد ان تصبح من اليأس لكي تهرب منه اكثر مما هي عليه الآن، وعلى كل حال، فقد كانت تعرف حظها وهو انها في منتصف الطريق ستقابله حتماً، عائداً...

كانت الشمس قد أصبحت الآن في قبة السماء تقريباً، وكان الحرّ على الشاطىء لا يكاد يحتمل، لو انها فقط تجرؤ على الإبتراد في مياه البحر، ترددت وهي تضع كفها فوق عينيها تظللهما لكي تنظر إلى الأفق، ولكنها لم تر أي مركب، وهكذا خلعت ثوبها، ثم اخذت تغوص في المياه الصافية، ثم سبحت قليلاً قبل ان تنقلب طافية على ظهرها وقد أغمضت عينيها تحميهما من الشمس.

كانت حقاً جزيرة صغيرة خلابة، وإذا كان عليها ان تصبح سجينة في أي مكان، حسناً، لن يكون هناك أجمل من هذا السجن.

يا ليتها فقط لم تقذفه بذلك الطبق، فقد كان ذلك عملاً صبيانياً لم يفعل سوى إثبات رأي براند فيها، ولكنه لم يكن سيسمح لها بالذهاب على كل حال، فلماذا تهتم برأيه فيها؟ ولكنها كانت تهتم بذلك فعلاً، لقد أدركت فجأة، وبوضوح مؤلم، انها تهتم كثيراً، اتخذت قرارها على أن تريه، ففي هذه الأسابيع الثلاثة المقبلة ستريه انها ليست طفلة افسدها الدلال، وعندما يأتي ذلك اليوم السعيد ويطلق سراحها...

ولكنها لم تجد في هذه الفكرة أية بهجة، وإنما شعوراً كئيباً ثقيلاً بين اضلعها، ماذا جرى لها؟ انها حتماً، سرعان ما ستنطلق من سجنها هذا حالما يفتح باب القفص، كما ينطلق الوطواط من الغرفة المظلمة...

سمعت صوتاً خافتاً جعل الفزع يتملكها، وعندما أدارت رأسها رأت المركب، وكان قريباً منها تماماً، متقدماً نحو الشاطىء، اطلقت شهقة خافتة ثم اخذت تشق طريقها نحو المياه الضحلة حيث اختطفت ثوبها ثم توارت خلف بعض النباتات المتشابكة لكي ترتديه رغم تبلل جسمها.

وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى الرصيف، كان براند ينزل من المركب حقيبتين عرفت انهما لها، ثم حقيبة أخرى وبعض الصناديق، لم يرها في البداية، فوقفت تنظر اليه وهو يخرج الأمتعة، مستغرقاً في عمله تماماً.

عند ذلك وهي تراقبه، أدركت فجأة السبب الذي سيجعل تحررها منه صعباً للغاية، ففي تلك الليلة البعيدة في سومبرا، والتي كانت في نفس الوقت الذي تفتحت فيه زهرة أنوثتها، في تلك الليلة سحقت تلك الزهرة ما جعلها تعيش بعد ذلك قرابة الخمس سنوات في صحراء مجدبة قاحلة، ولكنها الآن في هذه اللحظة، أدركت ان مشاعرها كانت متلهفة إلى براند كانت تريده.

كان قلبها يخفق كالطبل حتى خافت من ان يسمعه، فأخذت تتنقل على الرمال باضطراب، وما ان انحنى براند ليحمل احدى الحقائب، حتى رآها فبقي جامداً لحظة ثم اخذ يستقيم واقفاً ببطء.

«تعالي ساعديني.»

ولكن عندما صعدت إلى الرصيف الخشبي، واخذ ينظر إليها، إلى قدميها الحافيتين وشعرها الذي كان الماء يقطر منه، رأت نظراته تنصب إلى حيث كان ثوبها يلتصق بمستديرات جسمها المبتل بالماء، رأت وجهه جامداً من وراء نظاراته الشمسية، ولكنها أحست بتوتره عندما قال بصوت أجش: «تبدين وكأنك عروس بحر غرقى.»

فهمست قائلة: «عرائس البحر لا تغرق.»

وقف جامداً لحظة، ثم قال: «إذا أنت أخذت تلك الحقيبة، فسأحضر أنا البقية.» قال ذلك متوتراً، ثم انحنى يحمل صندوقاً.

• • •

سكبت فيليسيا لنفسها كوب قهوة آخر، ثم أخذت ترتشفه وهي تحدق إلى البحر، انه يوم آخر رائع الجمال، ومن خلفها سمعت صوت خطوات براند، ثم ما لبث ان تهالك على كرسي امامها.

فقالت له بوجه مشرق ولكن بدون ان تنظر إليه تماماً: «صباح الخير.» فكان ان اجابها بخشونة: «قهوة؟»

انها الخشونة مرة أخرى، سكبت القهوة وكذلك كوباً من عصير البرتقال كانت قد أعدته لتوها، ثم دفعت ذلك إلى ناحيته ومعهما طبق يحتوي على كرواسان كانت قد سبق وسخنته.

«شكراً.» ثم نظر في عينيها وهو يعبس بشكل اعتذار: «هل نمت جيداً؟»

«نعم، شكراً.»

وفي الواقع، لم تستطع ان تتذكر ليلة كان نومها فيها

افضل من هذه الليالي التي تمر بها، كانت تنام كل ليلة على هدير امواج البحر وهي تتلاطم عند الشاطىء، حتى ولو ايقظها هذا، فقد كان يشعرها بالراحة القصوى ان تسمع، من خلال الحاجز الرقيق، صوت تقلب براند في سريره، حتى انها كانت تستمتع احياناً بالانصات إلى تنفسه المنتظم، ولكنه لم يكن ينام جيداً، كما بدا لها وهي تتأمله من فوق حافة فنجان عينيه، وذلك التوتر الدائم حول فمه.

سألته: «ما الذي ستفعله هذا النهار؟ الغوص طبعاً.»

فرفع بصره اليها: «وماذا في ذلك؟»

«لقد أمضيت طوال نهار أمس في الغوص، وكذلك أول أمس، ثم... في الواقع.» واهتز صوتها قليلاً، وهي تتابع: «انك لم تفعل سوى الغوص وذلك اثناء الستة عشر يوماً الماضية، ثم تقفل على نفسك غرفتك كل مساء لكي تكتب ملاحظاتك.»

«لا اريد ان تبدإي بهذا مرة أخرى.» ووضع فنجانه من يده بصبر نافد: «لقد سبق وقلت لك انني لم استطع الانتباه إلى الغوص منذ شهور، وذلك لأسباب عديدة.» وألقى عليها نظرة ذات معنى. «ما جعلني اتخلف عن المنهاج بشكل بالغ.»

«ولكن ما المفروض ان اقوم به طوال النهار؟»

فبدا عليه نفاد الصبر، ثم اجاب: «يمكنك ان تأخذي حمام شمس، ان تسبحي. ان الناس هنا يدفعون المبالغ الكبيرة في هذا السبيل، ثم يمكنك ان تقرإي.»

«لقد قرأت كل كتاب ارسلته مايبيل إليّ، مرتين على الأقل، وكل كتبك أيضاً.»

فنظر حوله مستلهماً: «حسناً، يمكنك دوماً ان تتدربي على الغناء.»

فحملقت فيه مذهولة: «أتدرب على ماذا؟»

«لقد سمعتك منذ ليالي...» ولوى شفتيه قليلاً. «اذكر انك كنت اثناء ذلك تغسلين الأطباق.»

فقالت باحتجاج: «انني واثقة من انني لم اكن اغني، فأنا لا اغني ابداً... حسناً في الحمام فقط.»

«ربما كنت هناك إذن، وعلى كل حال، اعجبني صوتك تماماً.»

وعندما نظرت إليه بارتياب، تابع يقول: «ألم يسبق لك قط ان جربته مع الموسيقى؟»

فقالت بتردد: «حسناً، كلا، فقد كنت مهتمة دوماً بالتمثيل.»

«فكري في ذلك إذن، وانظري ما يمكن ان يأتي ذلك به عندما تعودين إلى لندن.» وسكت قليلاً، ثم سألها: «اظنك ستعودين إلى هناك أليس كذلك؟»

فأجابت: «آه، نعم، طبعاً.» وكانت ترجو ان يظهر صوتها من الثقة اكثر مما كانت تشعر به، وفي الواقع، رغم انه لم يبق امامها سوى اسبوع الآن، لم تكن واثقة مما ستفعل.

«حسناً، استعيري بعض الأشرطة مني، ثم غني معها.» وبدا عليه وكأن تمضية هذا النهار قد تقرر بالشكل الذي يرضيه.

فقالت وهي تمط شفتها السفلى بتمرد: «لا أريد ذلك، أريد ان آتي معك للغوص.»

فتمتم شيئاً غير مسموع، ثم قال: «لا تقولي ذلك مرة أخرى.»

«انني اعلم ان لديك بذلات احتياطية للغوص، ان تلك البذلة

الحمراء تناسبني تماماً.» ثم اضافت بسرعة: «ولكن ليس معنى هذا انني كنت جربتها طبعاً.»

«كلا.»

«حسناً خذني معك فقط في المركب، انني سأتصرف بشكل جيد جداً، اعدك بذلك.»

فقال ضاحكاً بعبوس: «آه، نعم انا واثق من هذا، هل تريدينني ان اتركك على المركب، وحيدة تماماً مع مفاتيح المحرك؟ انك ستكونين في نصف الطريق إلى الأفق قبل ان اقطع انا نصف الطريق إلى قاع البحر.»

فاغرورقت عيناها بالدموع، انه لا يريدها معه، وهو فقط يختلق الأعذار لذلك، بينما الحقيقة المرة هي انه لا يطيقها بالقرب منه، فهي مصدر إزعاج له لا يمكنه تجنبه، إذ تفسد عليه عزلته، كان الأمر يدعو إلى السخرية حقاً، فهي تريد ان تبقى معه على الدوام، بينما هو.. وعندما أنهى قهوته ونهض واقفاً، رفعت اليه بصرها تقول ضارعة: «أرجوك يا براند، انني أعدك...»

فقاطعها بقوله: «لو انك تعلمين ما يصلح لك، لما كررت كلامك عن الذهاب للغوص.» ثم استدار على عقبيه سائراً نحو الشاطىء بخطوات واسعة، جلست فيليسيا جامدة في مكانها، لقد فعلتها مرة أخرى... بالرغم من نواياها الطيبة، أثارت غضبه، واخذت تنقر بإصبعها على المائدة، لقد حاولت اثناء الاسبوعين والنصف الماضية ان يكون تصرفها معه مثالياً، فقد أعدت له وجبات طيبة، ونظفت البيت، ولم تسمح لنفسها، حتى الآن بأن يفلت زمام طبعها منها... رغم ما كان من كثرة استفزازه لها.

واثناء ذلك كله وبشكل غريب كانت في الحقيقة قد استمتعت بما كانت تقوم به من ترويض للنفس، ولكن ماذا كانت فائدة هذا كله؟ كان يتجاهلها اكثر الأوقات، مظهراً بوضوح رغبته في تفضيل غرفته على صحبتها وطوال الوقت الذي كان الشجار فيه والأحاديث المهذبة بينهما يتناوبان بشكل متوازٍ، كان ثمة شعور في اعماقها حاولت طويلاً ان تكبحه.

ماذا لو انها كشفت نفسها له؟ ماذا لو انه فاجأها ذات يوم، وهي تنظر اليه طويلاً، كما سبق وفاجأت نفسها تفعله مرات ومرات؟ والأسوأ من ذلك كله، ماذا لو ان شيئاً ما، صوتها أو أي إشارة منها... فضحتها امامه فعرف من تكون؟ هذا طبعاً سيثبت رأيه فيها ما يجعل احتقاره لها يزداد، ولكن بالنسبة إليها كيف تستطيع ان تحتمل ذلك؟ ان عليها ان تهرب... تهرب الآن قبل ان يفوت الأوان وتقع الكارثة.

نهضت بعجل، ثم ركضت إلى غرفتها حيث ألقت في حقيبة الشاطىء المصنوعة من القش، ألقت بعض حاجياتها، ثم هبطت وهي تتعثر، الدرجات حيث اجتازت الفناء إلى كوخ الصيادين، سحبت، لاهثة، الزورق البدائي الصغير نحو الماء حيث جاهدت في تخليصه من الاحتكاك في جذور أشجار القرام قبل ان يستقر أخيراً في الماء، صعدت اليه ثم امسكت بالمجذاف ثم اخذت تجذف نحو الأفق حيث كان الجبل الذي يشرف على جمايكا.

• • •

كانت قطرات العرق تتسرب من رأسها إلى عينيها،

فأخذت تمسح وجهاه بقفا يدها، ثم تركت المجذاف وقوّمت ظهرها الذي كان اخذ يؤلمها، كما كانت تشعر بذراعيها وكتفيها وكأنهما انسلخا من مكانيهما، واخذت تحركهما بعنف.

عندما كانت صغيرة، كانت تخرج مع ولدي شقيق مايبيل لصيد السمك في قاربهما الصغير، فكانا يطلقان لها العنان في التجذيف لمدة خمس دقائق. والآن اخذت تتذكر ذلك كله.

وعندما انحنت لتقبض على المجذاف مرة أخرى، رأت من زاوية عينها المركب البخاري تخترق دفته المياه، مثيراً وراءه زبداً أبيض، وانطلقت من اعماقها آهة ذعر وعدم تصديق.

هذا غير ممكن، لقد كانت تعلم انه يبعد مسافة خمسين قدماً في اعماق الماء بين المرجان، وأخذت تجذف بسرعة وفزع نحو الشاطىء.

لم يبد على براند العجلة بعد ان عثر عليها، واخذ يدور حولها متراخياً، اشبه بسمكة قرش تتسلل خلسة، ثم بدأ بتصغير الحلقة حولها شيئاً فشيئاً، وأخيراً أوقف المحرك، ثم تحول جانباً حتى أخذ هيكل المركب يدفع قاربها الذي استدار ما جعل فيليسيا تتشبث بجانبيه وهي التي كانت صممت على تركيز نظراتها على الأفق.

«إلى اين انت ذاهبة؟»

وعندما جرؤت على النظر اليه، كان هو ينظر اليها، وهو يستند بمرفقيه على حافة المركب.

فأجابت وهي تنظر اليه بتمرد: «انني اجذف للنزهة.»

«وماذا أيضاً في الحقيقة؟»

كان يتظاهر بتصديقها، باتزان، ولكن كانت عيناه تلمعان.

فقالت: «ولهذا إذا سمحت بالابتعاد عن طريقي استطيع ان اتابع نزهتي هذه.»

كانت بهذا الكلمات تستمر في المحاولة على الأقل.

استقام واقفاً ومد يده اليها: «فلنأخذ تلك الحقيبة.» ناولته حقيبة القش، وعندما مد يده مرة أخرى سمحت له بأن يجذبها إلى المركب حيث القى بها باحتقار بين معدات الغوص.

سألته صائحة لكي يسمعها خلال صوت المحرك: «ماذا بالنسبة إلى الزورق؟»

«دعيه، فأنت لن تحتاجينه مرة أخرى.»

اخذت تتأمل، بفتور، المناظر التي اصبحت مألوفة لديها، وعندما اخذ براند يسير بالمركب بمحاذاة الساحل ثم وصل إلى الرصيف، بقيت جالسة بصمت، فوضع يده تحت مرفقها ثم رفعها لتقف على قدميها، ولكنها وقفت جامدة وهي تقول: «اظنك ستحبسني في البيت من الآن فصاعداً؟» وارتجف صوتها وهي تشعر فجأة، بالإرهاق البالغ بعد لعبة القط والفأر التي تحدث بينهما.

قال بابتسامة سريعة: «قد افعل ذلك.» ولكن صوته كان جاداً وقد بدا في عينيه نظرة غريبة... نظرة جعلت قلبها يخفق بعنف.

«كيف... كيف علمت بذهابي؟»

«لا ادري وإنما هو مجرد احساس، ربما ثمة حاسة سادسة تتعلق بك ابتدأت تتكوّن عندي.» وامسك بكتفيها على

الفور واخذ يهزها بغضب بالغ: «ما الذي جعلك تقدمين على هذا العمل الأحمق؟ اتعرفين أنه كان من الممكن ان تغرقي؟»

فحولت عينيها عنه، يجب ان لا يعرف أبداً السبب الذي جعلها تشعر فجأة بهذه الرغبة القاهرة في الهرب.

«كنت... كنت مستاءة لأنك لم تأخذني معك إلى الغوص، لماذا لم تأخذني، يا براند؟»

«انني لا آخذك معي لأنني لا أجرؤ على ذلك.»

«لا تجرؤ؟»

«ان الغوص في هذه المنطقة هي رياضة بالغة الخطورة...»

فقالت ساخطة: «ولكنني أعرف ذلك...»

فاستمر يقول: «ثم انك غير جديرة بالثقة، انني لا أثق بك وأنت على الأرض اليابسة، فكيف أثق بك وانت تحت سطح البحر بمئة قدم؟ حسناً...» وهز كتفيه بحركة ذات معنى، وعندما لم تقل شيئاً، تابع يقول وقد رق صوته قليلاً: «انني آسف، يا فيليسيا ولكنك مازلت غير ناضجة... اعني انظري إلى هذا التصرف المجنون الذي صدر عنك هذا الصباح...»

«ولكن ذلك كان فقط لأنك...»

فقاطعها قائلاً: «انك مازلت طفلة يا فيليسيا وقاع البحر ليس مكاناً لطفلة مدللة عنيدة.»

فانفجرت تقول بعنف: «انك مخطىء، يا براند، فأنا لست طفلة... بل امرأة ناضجة، اعني.. على الأقل...» وشعرت بوجهها يحمر ارتباكاً. «بالنسبة إلى الغوص فأنا ناضجة، لقد تعلمت الغوص حين كنت في العاشرة، وما كان بإمكاني ان احظى بمعلم افضل منه، فأنا اعرف كل شيء عن مبادىء

الغوص... وكيف عليّ ان اطيع مرافقي دون سؤال وإلا وقعنا معاً في مشكلة خطيرة، انني أعدك بأن لا اقوم بأي عمل احمق هناك أبداً على الاطلاق، ولكن طبعاً...» واخذت تغالب دموعها المفاجئة التي كانت تعود إلى عينيها. «لا اتوقع منك ان تصدقني.»

نظر اليها طويلاً دون ان يتكلم، واخيراً تقدم من الرصيف الخشبي ومد يده اليها: «هيا بنا، ودعينا نرى ان كنت سأعثر لك على لباس الغوص الأحمر ذاك.»

فحملقت فيه وقلبها يخفق فرحاً: «اتعني...؟»

«نعم، يا صغيرتي، اننا ذاهبان للغوص.» وألقى اليها بابتسامة جافة.

* * *

وقفت فيليسيا على حافة المركب، ثم ألقت بنفسها إلى البحر حيث غاصت في المياه الصافية دون جهد، وداخل قناع الوجه اتسعت عيناها وهي تصل إلى أعلى قمم المرجان، كانت هذه المنطقة من الشعاب المرجانية أقل من ثلاثين قدماً تحت سطح الماء، ولهذا كانت الرؤية واضحة... فهما ليسا بحاجة إلى المصباح الكهربائي القوي الذي أنزله براند معه في ليلة الغوص الرائعة تلك منذ ليلتين... وكان امامها مباشرة حافات تلال من المرجان الأحمر، كان تبدو ناعمة اسفنجية، ولكنها عندما لمست حافة واحد منها، رأته صلباً كالصخر، وخلف المرجان كان يوجد طبقة بارزة تبدو مثل صبار صحراوي ضخم، بينما إلى شمالها كان هناك سجادة مخملية من المرجان

المروحي الأزرق كانت انواع متألقة الألوان من الأسماك تتدافع داخلة وخارجة بينها.

أخذت تحاول ان تكسر أحد تلك المراوح، وكانت صغيرة رائعة الشكل. عندما تقدم براند، والذي كان يرتدي بذلة غوص سوداء، تقدم سابحاً إلى جانبها، ودفع يديها بعيداً عن الطريق، ثم استل سكينه التي كان يربطها إلى فخذه، ثم قطع المروحة من اساسها وناولها إياها، وفتحت هي الحقيبة التي كانت تشدها إلى حزامها لتضع فيها ما تجمعه، ثم وضعت المروحة المرجانية فيها واغلقتها، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه قطيع من الاسماك الملونة متقافزا على اصابعها وحولها.

كانت تسبح على طول جانب صخرة مرجانية، عندما رأت رأساً فظاً خشناً لسمكة ثعبان البحر وهي تتحرك مع التيار برفق، كانت تبدو اكبر حجماً مما كانت رأته منها في حياتها من قبل، ولكن عندما سبحت نحوها، وضع براند يده على ذراعها، مشيراً لها بيده الأخرى ما معناه بشكل قاطع: «كلا.»

ثم ألقى نظرة على ساعته أشار بعدها إلى أعلى. آه، كلا، لا يمكن ان يكون وقت الصعود قد حان، ونظرت اليه من خلال قناعها، متوسلة، ولكنها ما لبثت ان أومأت بالقبول، فردت إشارته بمثلها ثم تبعته طائعة إلى ان وصلا إلى منطقة الأمان فدفعا سيقانهما صاعدين إلى أعلى.

ساعدها براند على الصعود إلى المركب، ثم رفع عن ظهرها اسطوانة الهواء بينما أبعدت هي القناع عن وجهها.

«آه، يا براند، ما كان أروع ذلك، هل يمكننا ان نعود إلى هنا غداً؟»

كانت تفك الحزام من حول خصرها، ثم نظرت إليه وقد تألق وجهها، ولكنه لم يزد على أن قال: «انني مسرور لاستمتاعك بذلك.» ثم اشاح مبتعداً.

«دعني اساعدك.»

ورفعت يديها تساعده على رفع اسطوانته ولكنه قال باقتضاب: «يمكنني تسوية الأمر بنفسي، شكراً لك.»

عضت فيليسيا شفتها وقد تبخر بعض ابتهاجها بالغوص، ولكن عليها ان لا تدع ذلك يؤثر عليها، فقد اصبحت تعرف الآن أي رجل متقلب الطبع هو. كان احياناً اثناء هذه الخمسة ايام منذ ابتدآ يغوصان معاً، كان يبدو ودوداً دافىء المشاعر، واحياناً أخرى، ودون سبب تعرفه، كان ينكمش على نفسه.

بعد ظهر أمس فقط، وكانا عائدين من الغوص إلى البيت، كانا يضحكان معاً من الطريقة التي امسك فيها سلحفاة البحر ثم سار بها عدة امتار قبل ان يطلقها اخيراً في الماء حيث اخذت تجذف مبتعدة.

كان قد اقترب منها، دون وعي، حيث اخذا يسيران معاً بمودة ظاهرة، وإذا به يقفز فجأة، ثم يسير مبتعداً عنها نحو الشاطىء، وعندما وصلت إلى البيت، كان قد دخل غرفته مغلقاً بابها على نفسه، ومضى يدوّن ملاحظات النهار.

وهذا النهار، ومنذ وقت الافطار، كان يلوذ بالصمت، كان منعزلاً واجماً هادئاً، ولكن عليه ان لا يفسد هذا اليوم، وبعد لم يبق امامهما سوى الغد، وبعد ذلك...

كان براند قد خلع بذلته المبتلة، كاشفاً عن ثوب سباحة كحلي اللون، وبسرعة اخذت هي تخلع بذلتها مظهرة مايو

السباحة الليلكي اللون، ففي الأيام الأخيرة اعتادت ان تكون به بجانب براند، كانت في العادة، تشعر بشيء من الخجل في أي نوع من ملابس البحر، ولكن بدلاً من مغازلتها والنظر اليها بهيام كما يفعل اكثر الرجال، فإن براند كان يبدو غافلاً تماماً عنها.

في الأيام الأولى شعرت إزاء عدم اهتمامه بها بنوع من الانزعاج ولكنها ما لبثت ان حدثت نفسها بأنها لا شك حمقاء، وان هذا هو الافضل. فمنذ اجهاض محاولتها للهرب، اخذت تجاهد في قمع مشاعرها التي كانت تشدها نحوه، فإذا كان مايزال يعتبرها مجرد وصية... حسناً، فهذا في مصلحتها تماماً.

جلست على سطح المركب، ثم افرغت محتويات حقيبتها، ثم انحنت تتفحصها، صدفة فارغة... بعض قطع المرجان، ثم المروحة الزرقاء الجميلة، اخذت تمر بيدها عليها تلامسها وهي تقول: «ما أروعها.» ثم وبدون تفكير امسكتها امام وجهها، ناظرة إلى براند من فوقها واهدابها ترتعش وعلى شفتيها ابتسامة لعوب، ولكن عندما بادلها النظر بجمود، ألقت بالمروحة أرضاً، ثم قالت بضحكة متوترة: «ظننت لحظة انني عدت إلى معهد التمثيل، كان لدينا درس ذت يوم عن كيفية التعبير بالمروحة... فنحاول خلق كل انواع الأمزجة المختلفة والمواقف وذلك دون استعمال كلمة واحدة...»

وانحنت باضطراب، تلتقط صدفة كبيرة، فتأوه براند وهو يقول: «كلا، لا تعودي إلى هذه الأشياء، لقد سبق واخبرتك انه لا توجد لآلىء هنا.»

«آه، ارجوك ان تفتحها، انني اظن حقاً ان هذه قد تحتوي على لؤلؤة.»

واستطاعت ان تبتسم بشكل طبيعي، بينما مد هو يده إلى السكين فأخذ يدخل رأسها بين جزئيها، وعندما فتحهما، اخذت تتحسس ما في داخلهما، ثم قالت بأسى: «كلا، لا يوجد شيء، ولكن انظر إلى الصدفة، انها رائعة الجمال حقاً.»

وامسكتها تريه إياها، وهي تلامس داخلها الفضي اللون برفق وهي تتابع: «آه، انها بنفس لون عينيك... أعني...» واخذت تنظر بسرعة إلى الصدفة مرة أخرى. «انني احب ان اجعلها قلادة، هل يمكنك ان تحدث لي فيها ثقباً، من فضلك؟»

ودون ان يتكلم، اخذها براند، وبينما كان يدخل في نهايتها الثقب المناسب، كانت هي قد انحنت ورفعت من شعرها الشريطة المبتلة التي كانت تربطه بها اثناء الغوص، وعندما اعاد اليها الصدفة وهو مازال صامتاً، ادخلت الشريطة في الثقب ثم ربطتها حول عنقها.

وعندما حاولت ان تقف بسرعة، نسيت انها كانت تجلس على ركبتيها، وإذا بها تسقط عليه بكل ثقلها.

للحظة واحدة، التمع شيء في هاتين العينين، ما لبث بعدها ان تمتم بخشونة: «حان وقت الذهاب.» ثم دفعها عنه بفظاظة، وإذ تكورت حول نفسها على المقعد الخشبي، اخذت تنظر اليه وهو يدور بالمركب، قبل ان يتجه نحو الشاطىء.

سار بالمركب بجانب الرصيف الذي كان يحتك بهيكله، ثم قال لها دون ان يلتفت: «إذهبي واجمعي حاجياتك.»

«ماذا؟» وقطبت جبينها بارتباك.

فكرر قوله بفروغ صبر: «احضري حاجياتك.»

«ولماذا؟»

«لأنني سأعيدك إلى الأرض اليابسة.»

نهضت بسرعة، ثم تقدمت ووقفت بجانبه. كانت الشمس قد غربت، ممتصة لون الشفق من وجهيهما.

ثم قالت بصوت متهدج: «ولكن، لماذا يا براند؟»

فأجاب بوحشية: «لأن ما يناسبني هو ان لا ابقيك هنا اكثر من ذلك، فأنا سوف ادعك تذهبين مبكرة يومين، هل هذا حسن؟» وعندما نظرت اليه متبلدة، عاد يقول: «هذا ما تريدينه، أليس كذلك؟»

وقفت جامدة تماماً دون ان تنظر إلى شيء، ثم وبصوت غريب عنها قالت: «نعم، طبعاً هذا ما أريده، يا براند. سأذهب واحضر أشيائي.»

الفصل العاشر

«هل أنت واثقة من ان هذا ما تريدينه، يا فيليسيا؟» ونظر جيم بيلي إليها من فوق مكتبه وقد عقد جبينه.

فأجابته بحزم: «واثقة تماماً، يا جيم، فقد فكرت في هذا الأمر كثيراً اثناء... هذه الأسابيع الثلاثة.»

وحولت نظراتها عنه، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أشار فيها أي منهما إلى اختفائها المفاجيء، وكذلك رجوعها المفاجيء، وتابعت تقول: «لقد عقدت عزمي، فأنا لا اريد ان احصل على كل أموال جدي... انني سآخذ ما يكفيني لتسوية شؤوني اثناء الأشهر القليلة القادمة، ولكنني سأشق طريقي في هذا العالم بنفسي.»

«هممم...» وزم المحامي شفتيه متشككاً: «حسناً، انني اعلم ان سوزان ستكون شاكرة جداً... فهي ستتمكن من انهاء نادي الفتيان ذاك في مدينة كينغستون، ولكن هل..» وأخذ يعبث بقلمه، وهو يتابع: «... تحدثت بكل ذلك مع براند؟ فهو وصيك؟»

«كلا، هو ليس وصيي.» ومرة أخرى لم تنظر إليه مباشرة، وهي تتابع كلامها: «لم يعد الوصي عليّ وذلك منذ منتصف الليلة الماضية.»

«وهل قررت ما ستفعلينه بعد ان بلغت سن الرشد؟ هل ستمكثين هنا، أم انك ستعودين إلى لندن؟»

فأجابت متهربة: «حسناً، كلا، فأنا لم اقرر بعد، ولكن لدي الوقت الكافي لذلك.»

«ربما عليك ان تتحدثي بذلك إلى براند.»

«كلا.» وفجأة دفعت بكرسيها إلى الخلف، ثم استقامت واقفة. أتتحدث إلى براند وهو الذي دفعها عنه بكل تلك القسوة؟ آه، عندما عادا إلى ذلك الميناء الصغير، اصر على ان يحضر اليها عربة لتأخذها إلى بيتها، ثم استدار بالمركب مبتعداً حتى دون ان يلقي عليها نظرة من فوق كتفه وكأنه لم يعد يطيق البقاء معها دقيقة واحدة اكثر من ذلك.

والتقطت علبة المجوهرات الصغيرة من على المكتب، قائلة: «شكراً مرة أخرى لهذا التذكار، انه جميل حقاً.»

ووقف جيم هو أيضاً، ولكن بدا عليه الكراهية لتركها تذهب. سألها: «كيف ستمضين بقية عيد ميلادك؟»

فقالت بابتسامة مشرقة: «آه، انت تعلم، قد اذهب إلى مقهى رودني حيث المجموعة لا بد هناك كالعادة.»

«حسناً، انك تعلمين انني وسوزان، سيكون سرورنا بالغاً اذا انت شرفتنا بزيارة، أو ما رأيك في ان ندعوك إلى العشاء في مطعم تريد ويندس؟ ان الطعام هناك ممتاز للغاية.»

«هذا لطف بالغ منكما.» وعلى غير توقع، وجدت فيليسيا عينيها مغرورقتين بالدموع، فأخذت تغالبها بسرعة وهي تتابع قائلة: «ولكن عليكما ان لا تقلقا بشأني، فساكون على ما يرام.»

بعد برودة الجو في مكتب جيم المكيّف الهواء، كان الجو في الخارج خانقاً، فأخذت تجول في الساحة المتربة التي كانت تتألق تحت أشعة شمس العصر، ثم وقفت مترددة، ان

عليها حقاً ان تعود إلى البيت... إذ لم يكن هناك سوى القليل من السياح الذين كانوا اشتروا التذكارات من السوق المحلي، وهو يعودون الآن إلى سفينتهم.

ولكن التفكير في بيتها والذي كان الصمت يسود جوه إلا من غناء مايبيل المرح، كان هذا التفكير كريها لديها في حالتها المزاجية هذه، وبدلاً من ذلك، اخذت تسير خلال شوارع ضيقة نحو الشاطىء، وعندما وصلت إلى شاطىء رودني وقفت عدة لحظات تنظر إلى لافتة المقهى والتي كانت تقرقع بخفة في النسائم الحارة التي كانت تهب من الجبال... تلك اللافتة التي كان سكوت قد وقع في مشكلة بشأنها عندما استعارها تنفيذاً لشرط على جرأته بينه وبين رفاقه، في تلك الليلة...

«إذا كنت متوترة حقاً بالنسبة إلى سومبرا، فليس لدي مانع من التبادل معك...» ويا ليتها... يا ليتها فعلت...

اخذت تجول وقد تملكها الضيق، في المنطقة البحرية، ثم اتكأت على جدار حجري خشن، تنظر إلى صف من زوارق الصيد وإلى جماعة من الرجال، كان بينهم حتماً... نعم، ابنا شقيق مايبيل واللذان كانا يأخذانها معهما كل تلك السنوات، كانا جالسين القرفصاء في ظل بعض الأشجار، وهما يهيئان شبكاتهما، استعداداً لصيد السمك.

كان منظراً جميلاً، ولكن فيليسيا، ولأول مرة كانت عمياء عنه، لأنها ادركت الآن كيف ستمضي بقية عيد ميلادها.

* * *

وضعت من يدها مجفف الشعر، ثم نظرت إلى نفسها في

المرآة، كانت في العادة تترك شعرها الذهبي مسترسلاً على كتفيها، ولكنها قررت هذه الليلة ان تكومه فوق رأسها ما يظهرها اكثر حنكة، وكان عليها ان تكافح في سبيل ذلك، ولكنها أخيراً نجحت في جعله كومة ملساء فوق رأسها ما عدا خصلتين تركتهما تحيطان بوجنتيها.

اخذت تتأمل عينيها لحظة، ثم وكأنها شعرت بالذعر مما لمحته في ذلك العمق الأزرق القاتم، اشاحت بوجهها ثم اخذت ترتدي ملابسها بسرعة، ومرة أخرى ترددت وهي تنظر إلى الثوب الملقى على سريرها، ولكنها ما لبثت ان أمسكت به، كان لونه الوردي، وهفهف قماشه الحريري فوق جسمها كالمياه الباردة المنعشة، وكان يكشف عن عنقها وكتفيها ويضيق عند الخصر.

قررت أن لا تتحلى من المجوهرات بسوى خلخال ذهبي رقيق كان جدها اهداها إياه في العيد، ان أي شيء آخر سيخفف من جمال البساطة في ثوبها، كذلك لن تضع زينة على وجهها ما عدا ظل خفيف على شفتيها، ثم عادت تنظر إلى نفسها في المرآة، كان ثمة توهج خفيف في وجنتيها، وكانت عيناها قاتمتين كالياقوت زرقاوين كبيرتين، وكان يظهر حول فمها الناعم توتر كئيب.

أطالت التحديق في نفسها وقد شعرت بشجاعتها تتلاشى، ولكنها استدارت لتنتعل حذائين خفيفين أبيضين دون كعب، ثم حملت حقيبة تسوّق صغيرة، وسارت إلى المطبخ.

«انني ذاهبة الآن يامايبيل.»

قمدت مديرة المنزل ذراعيها تحتضنها: «وداعاً، يا

حلوتي، واستمتعي بعيد ميلادك.» وكان صوتها يتدفق بالمشاعر.

فقبلتها فيليسيا وهي تقول: «لا تنتظريني، بإمكاني ان ادخل بنفسي.»

• • •

توقفت آخر حركة من المجذاف، واستقر الزورق بعدها على الرمال لتقفز فيليسيا منه بعد ان جمعت اشياءها.

«شكراً.»

فنظر اليها الشابان، ووجهاهما يتألقان في ضوء القمر ثم سألاها بارتياب: «هل انت واثقة من انك بخير، يا آنسة فيليسيا؟»

«نعم، يا إيرول، سأكون على ما يرام.»

فقال الشاب الآخر باكتئاب: «ان العمة مايبيل ستسلخ جلدنا وتسلقنا لأجل هذا.»

فضحكت فيليسيا بمرح اكثر مما تشعر به، وأجابت: «انها لن تعرف أبداً، اعدكما بذلك، وسأعثر على طريق العودة.»

وقفت على الرمال تنظر إلى الزورق إلى ان ابتعد تماماً، واصبح المصباح الكبير في مؤخرته أشبه بشرارة من عود ثقاب، عند ذلك انحنت تخلع حذاءها، ستعثر على طريق العودة؟ ربما ستكون قد عادت إلى كينغستون قبل ان يصطادا أوائل اسماكهما، يا لها من مجازفة خطرة اتخذتها، إذ تعود إلى هنا... المجازفة بإثارة غضبه لجرأتها على عصيانه، ولكن رغم انها هنا الآن إلا انها لم

تكن تعلم لماذا جاءت، كانت تشعر فقط بأن عليها ان تعود... وكأنما كان هناك شيء خارج نفسها يدفعها إلى ذلك.

عندما اخذت تسير على الشاطىء بسرعة، تملكها شعور غريب هو مزيج من الخوف والبهجة العنيفة.

وقفت في ظلال الأشجار تنظر إلى المنزل الذي كان يسبح في ضوء القمر، بينما اذناها مرهفتان لأقل صوت قد يصدر من حولها. ولكن المنزل كان مظلماً ساكناً، لا بد انه اقفل المنزل ورحل، وعضت شفتها وقد تملكتها وحشة عميقة، ثم تقدمت إلى الأمام ببطء، وعندما وصلت إلى زاوية المنزل وقفت فوراً.

كان براند هناك، كان مستلقياً على كرسي قديم من القش على الشرفة، بينما ألقى على المنضدة بجانبه كتاباً مفتوحاً، كان يضع ذراعاً تحت رأسه ملقية على وجهه ظلاً داكناً منعها من رؤية ملامحه، ولكنها شعرت به يحدّق في اعماق الظلام.

عند ذلك، عند ذلك فقط... عرفت كل شيء، عرفت لماذا لم تنظر قط إلى رجل آخر... سكوت، زملاؤها في الدراسة وآل... كل هؤلاء لم تكد تشعر بوجودهم... لماذا كانت من السعادة كما لم تعرف مثلها في حياتها، وذلك اثناء الأيام الأخيرة السحرية... ولماذا عادت إلى هنا هذه الليلة، وكأنها فراشة هشة تحوم حول اللهب دون إرادة منها، ولكنه الحب يدخل قلبها بكل مباهجه وأفراحه. هذا ما كانت تؤمن به على الدوام، انه لم يكن له ان يولد من الغضب والإستياء والإشمئزاز... ومع ذلك... وبكل خلية في كيانها أحبت براند.

كان أدراكها هذا من الهول بحيث استدارت وكأنها تبغي الهرب ولكن تلك الحركة الضئيلة نبهته، فأدار رأسه بحدة، ثم

هم بالنهوض من على كرسيه، ولكنه جمد في مكانه لحظة، قبل ان ينهض ببطء.

«فيليسيا... اهو أنت؟» قال ذلك بصوت مرتجف مختلف تماماً عن صوته الخشن الواثق.

«نعم.» قالت ذلك بلهجة اشبه بالنقيق، ولكن بعد تلك الصدمة الهائلة ادهشها ان تتمكن من الكلام أصلاً... كما اذهلتها قدرتها على التقدم منه بهدوء.

بقي على أعلى درجات الشرفة، وقد انعكس على وجهه ضوء القمر إلى ان وقفت أسفل منه بدرجة واحدة.

قال بصوت خال من أي تعبير: «لماذا عدت؟»

كانت قد تدربت على هذه اللحظة خمسين مرة في ذلك القارب، كيف ستقول بدون اهتمام. آه، لا يوجد احد في بيتي، وكل اصدقائي مسافرون، فلم أحب ان أبقى وحدي هذا المساء. ولكنها بدلاً من ذلك قالت: «أردت ان أمضي أمسية عيد ميلادي معك.»

مرت على وجهه الواجم سحابة بدت أشبه بالغضب، وللحظة تملكها الكرب وهي تظن انه سيمسك بها ويسير عائداً بها إلى مركبه. ولكنه قال: «هل تناولت طعاماً؟»

«كلا... كلا، ولكن هذا لا...»

«لقد ذهبت لصيد السمك هذا الصباح، هل تحبين ذلك؟» كان صوته ما يزال متوتراً غير طبيعي.

«آه، نعم، هذا رائع.»

* * *

«اتريدين مزيداً من القهوة؟»

فأجابت وهي تزيح فنجان القهوة جانباً: «كلا، اشكرك، وشكراً لوجبة طعام عيد ميلادي، يا براند.»

اجابها دون أن يبادلها النظر تماماً: «آسف لانها ليست وجبة لائقة تماماً.»

«سمك مشوي طازج وسلطة وسلة مليئة بثمار المانغا المقطوفة من الشجرة مباشرة... هل هناك ما هو أحسن من هذا؟»

منحها ابتسامة خفيفة كانت هي الأولى هذا المساء، ثم سكب لنفسه كوب عصير، ثم قال بلهجة رسمية: «عيد سعيد، يا فيليسيا، وأتمنى لك تحقيق امانيك في المستقبل، هذا ما يقولونه في هذه المناسبة، كما اعتقد.»

«نعم.» واخذت تعبث بفنجان قهوتها الفارغ، ما كان لها ان تأتي، بالطبع، كان من الجنون ان تأتي إليه بنفسها هذه الليلة أو حتى ان تفكر بذلك، وذلك بعد ان أوضح لها تماماً انه لا يريد أية علاقة معها.

لو انها بقيت بعيدة عنه لاستطاعت ان تحتفظ بشيء من كرامتها الجريحة، ذلك ان التوتر الذي ساد بينهما اثناء تناول الطعام كاد يحطم اعصابها، بينما تصرفات براند المتكلفة، وهو لا يكاد ينظر اليها، وكيف كان يبعد يده عن يدها بسرعة اذا ما احتكت بيدها اذا حدث وتناولا معاً حبة فاكهة من السلة في نفس الوقت، كل ذلك احدث في نفسها وحشة عميقة، وكلما أسرعت بترك هذا البيت كان ذلك افضل.

قالت بصوت متهدج: «حسناً، سأغسل الأطباق إذن.»

«هذا غير ممكن.» وكانت ابتسامته الآن تكاد تكون

طبيعية حين صعدت إلى عينيه، وبددت تلك الابتسامة من بعض شعورها بالوحشة بينما كان هو يتابع قائلاً: «الفتيات الشابات في منزلي لا يغسلن الأطباق في عيد ميلادهن الحادي والشعرين.»

كان قد غير ملابسه قبل العشاء، فارتدى بنطلون جينز اسود وقميصاً أبيض بدامعه اسمرار بشرته، وفجأة لم تستطع ان تستمر في الجلوس امامه، فقد تملكها الذعر من أن يقرأ في عينيها السبب الحقيقي لمجيئها إلى هنا وما يتبع ذلك من سخرية من جانبه، تملكها الذعر من ان يكتشف ذلك ما جعلها تندفع واقفة.

«انها أمسية رائعة... هل يمكننا ان نذهب للنزهة على الشاطىء... قبل ان تعيدني إلى بيتي؟»

«اذهبي انت وسألحق بك بعد دقائق.»

وعندما توارى داخل المنزل، اخذت فيليسيا تحدق في الظلام الدافىء، وفجأة نهضت وأخذت تخلي المائدة من الأطباق.

لم تسمع له صوتاً، انه طبعاً لن يلحق بها، وهذا المساء سيكون كالأماسي الكثيرة السابقة عندما كانت تجلس هنا وحدها، أو تسير على الشاطىء وهي ترى النور يتدفق إلى الخارج من غرفة الجلوس حيث كان براند يجلس إلى مكتبه محدقاً في الجدار الذي امامه.

كان المسجل الصغير الذي طالما صحبها في نزهاتها المنفردة على الشاطىء، كان مايزال حيث كانت تركته بجانب النافذة وذلك في آخر أمسية امضتها هنا، وفجأة وهي تشعر بالخوف من الصمت الذي كان

ينتظرها في الخارج، حملته وخرجت نحو الشاطىء.

اخذت تجول دون هدف، ولكنها ما لبثت ان جلست على الرمال التي كانت ما تزال دافئة من حرارة النهار، ثم فتحت المسجل، ثم اخذت تحدق بعينين متبلدتين إلى الأمواج الصغيرة التي كانت تتألق في ضوء البدر الاستوائي وهي تزحف إلى اصابع قدميها.

ولكن الموسيقى بدأت تتغلغل في رأسها شيئاً فشيئاً، وكان هذا الشريط الأخير الذي وضعته والذي كان عبارة عن موسيقى فيلم شهير، كان عاطفياً للغاية، وكان ملائماً لما كانت تشعر به في ذلك الحين، وها هوذا الآن الفايولين الشاعري يعزف: (الحب هو الروعة والبهاء)، فيخترق على الفور ذلك الجدار الزجاجي الذي اقامته حول نفسها في اليومين الماضيين.

وعضت باطن شفتها بشدة وهي تشعر بالوحشة والفراغ يتملكانها، وإذ منعها التوتر من ان تبقى جامدة في مكانها، نهضت واخذت تتمشى على شاطىء البحر تتمايل على انغام الموسيقى محاولة التغلب على مشاعرها.

وعندما تلاشت الأنغام وقفت ثم استدارت، وإذا بها ترى براند واقفاً ينظر اليها.

وقفت جامدة في مكانها وهو يتقدم منها وقد احاط بهما جو من التوتر وكانت عيناه تلتمعان في ضوء القمر وهو يناولها لفافة بيده قائلاً: «عيد مولد سعيد يا فيليسيا.»

مزقت الورقة، فإذا بعلبة مجوهرات سوداء، كان في داخلها المبطن بالساتين الأبيض، حبل لآلىء طويل،

اخرجت اللآلىء من العلبة ويدها ترتجف ثم حدقت إلى براند وسألته: «هل هي حقيقية؟» وكان في صوتها رهبة.

«انها حقيقية طبعاً، وقد كنت سأرسلها اليك... ولكن بما انك هنا...»

كان سيرسلها وليس يأخذها بنفسه...

«لا يمكنني قبولها، يا براندي.»

«بل يمكنك طبعاً.» قال ذلك بخشونة ولكنه تمالك نفسه وقال بابتسامة باهتة: «لقد كنت دوماً تغوصين بحثاً عن اللآلىء بين الشعاب، أليس كذلك؟»

«أجل شكراً يا براند، هل لك ان تلبسني إياها من فضلك؟»

وكان على فمها شبه ابتسامة هي الأخرى، ثم أدارت ظهرها اليه بينما اخذ هو يلف حبل اللآلىء حول عنقها... واحد، اثنان، ثلاث دورات... ثم ثبته بقفله.

وعندما استدارت نحوه لتريه العقد، كان قد ابتعد عنها ومضى ينظر إلى الرصيف الخشبي، لا شك انه سيخبرها ان الوقت قد حان لأخذها إلى بيتها، كان البدر فوقهما، وحفيف اشجار النخيل خلفهما والموسيقى...

وحدثت نفسها بأنها لن تنسى هذه اللحظة أبداً في حياتها، وشعرت بحزن هائل يكاد يخنقها.

التفت هو اليها وعلى فمه ابتسامة رزينة، وشعرت هي بتوتره الواضح.

فقالت له في محاولة منها لتخفيف ذلك: «أريد ان اشكرك مرة أخرى لهذه اللآلىء البديعة.»

مد يده يلامس العقد، وهو يقول متمتماً وعيناه تجولان فوق وجهها الشاحب. «أنك عروس بحر، عروس بحر رائعة

جاءت من البحر هذه الليلة... أتراك تختفين في زبد البحر عند الفجر؟»

فهمست تقول: «طبعاً، أليست هذه عادة عرائس البحر؟»

«ولكن لنفترض ان شخصاً ما اقنع عروس بحر بالبقاء... ما الذي سيحدث؟»

«انها تخسر ذيلها السمكي الرائع الجمال... ثم تموت.»

وارتجفت عندما اندفعت هبة هواء باردة من البحر.

«انت تشعرين بالبرد.»

وقادها على الشاطىء نحو البيت.

«اتريدين فنجان قهوة؟ لماذا لا تبيتين هذه الليلة هنا؟»

«لا بأس.»

وفي الشرفة، اخذا يرشفان قهوتهما صامتين بينما ضوء البدر يلف الكون بشاعريته.

كان قلبها ممتلئاً حباً... ونظرت اليه من تحت اهدابها لحظة طويلة وكأنها تريد ان تطبع صورته في قلبها إلى الأبد...

• • •

استيقظت فيليسيا مع أول خيوط الفجر التي كانت تتسرب من خلال النافذة غير المغلقة، اخذت تحدق لحظة إلى الجدار المقابل، ثم عاد ذهنها إلى حالتها الحاضرة، انصتت برهة، كان كل شيء هادئاً ساكناً، أتراه ما زال نائماً؟

كان الحمام ساكناً هو الآخر، لا بد انه يعد طعام

الإفطار... ولكن شعوراً بعدم الارتياح كان يقبض نفسها.

وعندما ذهبت إلى المطبخ، كان هو أيضاً خالياً، وكان الباب المؤدي إلى الشرفة نصف مفتوح، وعندما وقفت صامتة، وذلك الشعور بعدم الارتياح يتزايد، في نفسها، سمعت هديراً مفاجئاً، فنظرت من خلال الاشجار واذا بها ترى مركب براند يبتعد عن الرصيف متجهاً بأقصى سرعته نحو البحر.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ارتياح باهتة، ما كان احمقها... لا بد انه ذاهب إلى الشعاب ليصطاد سمكاً للافطار، واستمرت تنظر اليه إلى ان رأته يصل إلى الشعاب... ولكن اذا بالمركب يتجاوزها دون ان يخفف من سرعته، وقفت في مكانها وقد جمدت تماماً إلى ان اصبح المركب عبارة عن نقطة في الأفق.

تملك قلبها انقباض موحش عميق، لقد رحل، تاركاً لها كل احتقاره وهو يراها عادت إليه دون دعوة... عادت لغرض واحد، كما لا شك كان مقتنعاً... فهل هذه هي الحقيقة؟

«كلا»... انطلقت هذه الكلمة من اعماقها، بصوت عالٍ، تنطق بكل ما يمكن من تحتويه نفس بشرية من حزن تملك كيانها، لقد جئت لأنني احبه فقط.

ولكن ربما... وتملكها الرعب، ربما كان الأمر أسوأ من ذلك، أتراه عرف أخيراً من تكون؟ وانها هي نفس فتاة سومبرا؟

يا ليتها لم تكن من الضعف بحيث عادت إليه، وإلا لما اكتشف أمرها على الاطلاق، ولما عرف من تكون. فإذا هي بقيت هنا الآن، فالإحتقار في عينيه سيقتلها، وتملكه الذعر

فجأة من ان يكون الآن عائداً، فأخذت تتفحص الأفق، ولكن المركب كان قد غاب الآن تماماً، ولكنه سرعان ما سيعود، فكيف يمكنها أن تهرب؟

وعندما أخذ عقلها يحاول التفكير في كيفية الهرب، وقد تملكها اليأس، اذا بها تسمع اصواتاً قادمة من بعيد، ثم اذا بها تر زورقاً صغيراً يبرز من خلف مجموعة من الأشجار الملتفة في نهاية الشاطىء، آه انهما إبنا شقيق مايبيل عائدين من صيدهما الليلي.

أسرعت ترتدي ثوبها، وعندما فتحت الدرج قرب السرير رأت حبل اللآلىء فاختطفته رغم ما شعرت به من انقباض مؤلم، ثم دسته في جيبها، فهو سيكون الذكرى الوحيدة منه اثناء السنوات الفارغة القادمة...

ركضت إلى الشاطىء ومن ثم إلى الرصيف الخشبي، وكان الزورق قد تجاوز الجزيرة الآن، ولكنها عندما اخذت تصيح وتلوح بذراعيها، رأياها فاستدارا عائدين نحو الشاطىء، كانت نفسيتها لا تتقبل أية اسئلة، ولكن لحسن الحظ كان الرجلان من التعب أو لعله التهذيب، ما منعهما من القاء اسئلة فضولية.

جلست في مقدمة الزورق تنظر إلى أسراب السمك تتواثب من حوله، وإلى الأصداف التي كانت تتألق بلونها الفضي الوردي في ضوء النهار الباكر... كانت تنظر إلى هذا كله إلى ان غاب منزل براند عن الأنظار، وبدت امامهم الأرض اليابسة، مرة واحدة. نظرت خلفها بخوف، ولكنها كانت تعلم ان براند لن يلحق بها الآن.

خلف الشحوب الذي كان يكسو وجهها، كان ذهنها

الحزين مشغولاً، مرة بعد أخرى بنفس السؤال، ماذا عليّ ان افعل؟ كانوا قد اصبحوا على مقربة من الشاطىء عندما جاءها الجواب... عودي إلى انكلترا وكوني ممثلة، هذا هو الأمر إذن. انها ستترك كل شيء خلفها وتبدأ من جديد، وستنجح هذه المرة.

واستقامت في جلستها في الزورق وهي تحدث نفسها بصوت مرتفع. «انا فيليسيا ناوتون.» وعندما رأت النظرة المتأملة التي رمقها بها ايرول، ابتسمت تطمئنه، انها ستعود إلى انكلترا وستصبح اعظم ممثلة في العالم.

الفصل الحادي عشر

«هذه أزهار أخرى يا آنسة.»

ظهر البواب عند عتبه غرفة الزينة وهو يكاد ينوء بحمل من الأزهار والورود.

«سآخذها.» وسرعان ما اقبلت بيتي وصيفتها، فأخذت منه الأزهار ووضعتها على منضدة في غرفة الملابس حيث كانت فيليسيا جالسة.

«آه يا بيتي، ما اجملها.» ومست قرنفلة منها بأنملتها ثم انحنت تشمها، ثم سألت وهي تفك الشريط الحريري الذي يضمها: «ولكن من هو المرسل؟ انني لا أرى بطاقة؟»

«الأغلب انها من هيئة الإدارة، آه، ان ذلك يذكرني... كنت على وشك ان أنسى.»

وأخرجت من جيب معطفها المعلق خلف الباب كيساً يحتوي على باقة من البنفسج وألقت بها إلى فيليسيا.

«حظاً سعيداً، هذه الليلة.»

«شكراً يا بيتي، انها جميلة.»

ورفعت الأزهار العطرة إلى انفسها، ثم استدارت فجأة تنظر إلى صورتها في المرآة، كانت عيناها بالغتي الاتساع وقد بدا الذعر فيهما: «أواه، يا بيتي، كم أنا خائفة، ماذا لو فشل العرض؟ ماذا لو كانت تمثيلي سيئاً...»

«كلا، كلا... انك ستفسدين زينة وجهك.» وتناولت المرأة منديلاً ورقياً واخذت تلتقط به حبيبات العرق من جبهة

فيليسيا. «ستكونين رائعة، يا حبيبتي، اتعهد لك بذلك، انظري كيف يتحدث الجميع عنك بحماسة واعجاب... ثم كل هذه..»

وأشارت إلى الزهور، والبطاقات التي تتمنى لها حظاً سعيداً من ليزي ودايب وسكوت، وأزهاراً رائعة الجمال من والدها وزوجته... ذلك انهم هم الثلاثة، قد اخذوا يتصلون ببعضهم اثناء الأشهر القليلة الماضية، وذلك بواسطة الهاتف والرسائل التي كانوا يتبادلونها بين لندن ونيوزيلندا ما جعل الصدع الذي بينهم يلتئم نوعاً ما... وبطاقة عليها صورة قطة ضاحكة، من جيم وبيلي... كل اصدقائها... ولكن لا شيء منه هو إلا صمت ثمانية اشهر، بعد ان توارى من حياتها في ذلك الفجر الفضي الإستوائي.

كانت بيتي تتابع قولها بحماسة: «مع كل دعوات هؤلاء لك بالنجاح، لا يمكن ان تفشلي.»

وقرقع المذياع في الزاوية: «حضرات السيدات والسادة، بقي من الوقت ربع ساعة.»

«ولكنني لم احصل على هذا الدور إلا لأن ساندي كرين كسرت ساقها.»

«بل حصلت على الدور لأن المخرج كان يعلم ان بإمكانك القيام به.»

«نعم، ولكن...» كان الذعر يتملكها، جاعلاً راحتيها تنضحان عرقاً. «انني أعلم بأنني كنت بديلتها في المواقف البسيطة، فأنا في الحقيقة، لست إلا ممثلة ثانوية في الكورس.»

فقالت بيتي برزانة: «ان كسرها لساقها يعني ان ليس

بإمكانك مجادلة الخط، والآن فلنلق نظرة عليك.» واخذت تتأمل فيليسيا من الرأس إلى القدم: «هممم... ان ربطك لحذائيك الطويلين هذين ليس صحيحاً، اما غير ذلك فلم تتركي لي شيئاً اقوم به، متى وصلت إلى هنا؟»

فابتسمت فيليسيا بخجل: «حسناً، لم استطع البقاء في المنزل.»

فابتسمت لها المرأة، ثم قالت لها: «لا شك انك تريدين رؤية اسمك في الاعلان الضوئي.»

أجابت فيليسيا ضاحكة: «حسناً، نعم احب ذلك في الحقيقة.»

وفي وسط مخاوفها، تملكتها بهجة وهي تتذكر كيف انها قبل ان تدخل من باب خشبة المسرح، كانت وقفت في الشارع الجانبي قبالة المسرح، تشبع نظراتها من منظر اللافتة المضاءة، (يفتتح الليلة موسيقى بولي جونز الجديدة المثيرة) واسفلها كان اسمها فيليسيا ناوتون.

«ثم لا تقلقي لذلك التغيير السريع في المشهد الثاني، فقد وضعت سحاباً جديداً في ثوبك ما يجعله اسهل.» ووضعت يدها على يد فيليسيا، «لا تتحدثي اكثر من ذلك، وتمالكي نفسك.»

فجلست فيليسيا بهدوء، تاركة بيتي تسوي امورها، فتصلح من ربط شريط حذائيها، وتسوي من بلوزتها، لتضع أخيراً على رأسها قبعة اللباد المزينة بريش النعام. وعاد المذياع يخترق الصمت: «بقي خمس دقائق. المشهد الأول، فليلزم المبتدئون والعازفون اماكنهم، رجاءً... رجاءً.» وبعد توقف لحظة «وحظاً سعيداً لكل منكم.»

وقفت فيليسيا متشنجة الجسم، ثم ابتسمت عندما عانقتها بيتي بسرعة، لتسير بعد ذلك خارجة من غرفة الملابس، قاطعة الممر الضيق المؤدي إلى خشبة المسرح، ثم تأخذ مكانها خلف الستار في مشهد يمثل السوق في شرق لندن.

• • •

كان الشعور بالذنب ينهشها، فبين كل مظاهر البهجة والحماسة، كان هناك شعور بالخوف والقلق لم تكن تستطيع تجنبه، وذلك عند انتهاء ليلة العرض الأولى، شعور بالغربة والتنائي عن ذلك كله.

في الأوج من نجاحها الشخصي هذا، حيث كان عليها ان تكون في منتهى الابتهاج، كان هناك شعور مؤلم بالفراغ، لقد أمضت عدة ساعات، اثناء الحفلة التي كانت تدور حولها، وهي تتحرك وتبتسم وتوزع ابتسامات لا نهاية لها، وذلك بشكل آلي لا روح فيه.

كم تاقت نفسها إلى الهدوء، إلى الراحة في السرير ولكن هذا كان يعني خيانة لزملائها هؤلاء لو انها تسللت خارجة قبل ان تصدر صحف الصباح، وهكذا بقيت إلى أن نشنجت ملامحها من كثرة الكلام والابتسام، واخيراً ارتفع الهتاف عندما دخل الحارس حاملاً ملء ذراعيه من الصحف، بينما الناس حوله يتخاطفونها من بين يديه.

وعلا صوت ديف المخرج يقول: «فليسمع كل واحد منكم، اسمعو هذا: «عرض رائع... منذ قرن من الزمان انفجرت بولي جونز الحقيقية على مسرح لندن كالنجم في السماء،

وها هي ذي فيليسيا ناوتون الآن مثلها، انها المرأة الشابة والتي منذ أربعة اشهر فقط، كانت تقوم بإداء خمس دقائق لا تتغير في مشهد لا يتغير وذلك مع هرة ديك واشنطون في مسرحية خرافية، واذا بها تقفز من صفوف الكورس الخلفية بشكل أشبه بقصة خرافية حقيقية، وذلك لتأخذ دور المغنية الشعبية الشابة والتي نافست في مدة قصيرة، المغنية ماري لويد في شعبيتها، والتي مثل إديث بياف من قبل، دمرتها عواطفها.)

وهتفت بها ممثلة تقوم بدور شقيقتها الكبرى في المسرحية. «هذه واحدة أخرى، يا فيليسيا.» واخذت تقرأ: «ان الآنسة ناوتون هي اكتشاف رائع، ان تصويرها لشخصية تلك الفتاة العنيفة الملتهبة الطباع من العصر الفيكتوري، تضع حداً فاصلاً بين النشاط والحيوية الزائدين، وبين الفوضوية، وسيكون من السهل عليها جداً ان تصل إلى القمة، فهي قادرة على ان تحملنا على الضحك الكثير، وعلى ذرف دموع الألم لأجل بولي نفسها، وذلك في نفس الوقت.»

«تهانئي، يا فيليسيا.» كان الجميع يحيطون بها ويسمعونها المديح والإطراء، وجميعهم في وقت واحد، ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع.

شقت طريقها بين هذه الجموع، ولكنها وقد أوشكت ان تنجح في الهرب، اذا بها تصطدم بالمخرج ديف.

«تهانئي يا فيليسيا.»

«اشكرك يا ديف... واشكر لك جهودك، فلولاك ولولا ثقتك بي لما وصلت إلى هنا...»

ذلك انه بعد الحادث الذي حصل لممثلة الدور الأصلية، ساندي، كان من السهل عليه ان يمتثل إلى الضغط الذي لاقاه من ممول المسرحية، والذي طلب منه ان لا يمنحها هذا الدور لمجرد سد الثغرة، وأن عليه ان يحضر اسم ممثلة لامعة غيرها، ولكن ديف كان أصر على إحضارها رغم تهديد الممول بأن يسحب تمويله، ولكنه تمكن من اقناع ممولين صغار آخرين بأن يزيدوا من تمويلهم وبذلك تمكن من القيام بالعرض.

صافحته بحرارة، ثم عادت إلى غرفة الملابس لتحضر زهورها، ووضعت عليها معطفها فوق ثوبها الأسود البسيط، ثم هبطت السلم وصدى وقع خطواتها على الدرجات الحجرية يتجاوب في الأنحاء.

كان الجو في الخارج معتدلاً، وقد ابتدأت اغصان الأشجار العارية تورق، وازدهرت مساكب النرجس، فوقفت بجانب احدها، ومدت يدها تلمس بأصابعها الأزهار الصفراء المتألقة، كان قد ابتدأ فصل الربيع، ولكن في اعماقها، مازال الشتاء بارداً، كما هو حالها منذ شهور، كل نجاحها هذه الليلة، والذي اسعد كل شخص، كان مجرد سخرية خاوية من دون الانسان الوحيد الذي كانت تحن إلى ان يشاركها فيه، وارتسم على وجهها الألم القديم المعتاد وهي تشير إلى سيارة أجرة، كانت قادمة باتجاهها، بالوقوف.

وعندما وصلت إلى بيتها، ترجلت من السيارة وصعدت إلى شقة تقع في الطابق الأول من المبنى ثم اخذت تبحث في حقيبتها عن المفتاح.

لقد كانت محظوظة حقاً، في الأشهر الأخيرة، فهذه الفرصة الرائعة التي سنحت لها للقيام بهذا الدور، وقبل ذلك هذه الشقة، فقد كرهت العودة إلى شقتها القديمة مع ليزي ودايب، وسكنت مؤقتاً، في نزل لإقامة الطلبة عندما قابلت، بالصدفة، هيلاري والتي كانت تكبرها بعدة سنوات، والتي كانت اضافة إلى انها وكيلة مسارح، كانت تبحث عمن يشاركها شقتها الجميلة.

وهكذا قدمت لفيليسيا الفرصة للانتقال إلى شقتها وحيث انها سجلتها في دفاترها، فقد وجدت أول دور لها هنا، والذي كان دوراً صغيراً في مسرحية «أنا والرئيس» ثم دور في مسرحية خرافية، والآن... هذه نعم، لقد كانت محظوظة، ومحظوظة جداً، فبعض الناس اقوى موهبة منها هي، ومع ذلك فقد امضوا حياتهم دون ان يحصلوا على ما يستحقونه، فلماذا كل هذا إذن؟ لماذا تسمح لنفسها بأن تذوي في داخلها شيئاً فشيئاً.

سارت على اطراف اصابعها كيلا تزعج هيلاري، ثم وضعت معطفها في الردهة، ودخلت المطبخ حيث وضعت الأزهار على مائدة المطبخ ثم ابتدأت تصنع لنفسها فنجاناً من القهوة، وعندما اخذت مياه الإبريق في الغليان، سارت نحو غرفة الجلوس، وكانت هذه غارقة في الظلام فاجتازتها إلى النافذة تزيح الستائر وإذا بها تجمد في مكانها ومازالت يدها على الستارة. كان ثمة رجل يجلس، دون حراك، على كرسي كبير، وظهره اليها، وكان لا يبدو منه سوى رأسه والذي كان يعلوه شعر كثيف أسود.

«براند!» هتفت بهذا الاسم بصوت أبح عندما اختلط في داخلها الألم مع البهجة.

وتقدمت تواجهه، فأخذا يتبادلان النظرات، أرادت ان تلمسه لكي تتأكد من انه هو حقيقة... بدا ببذلته الرصاصية اللون وقميصه الأبيض، بدا لها مختلفاً عما كان في آخر مرة رأته فيها، فقد كان بالغ الشحوب، وقد تبدد اسمرار بشرته والتي كانت من تأثير الشمس، ما جعله يبدو، للحظة كالشبح، ولكن عند ذلك اخذ إبريق الشاي في الصغير، فقالت: «سآ... سأصنع فنجان شاي.»

فقال وهو ينهض واقفاً على قدميه ثم يمسكها من مرفقها: «كلا، انك تبدين مرهقة تماماً، سأحضره انا.»

وأجلسها على الأريكة، ثم ذهب، وعندما عاد، وضع الصينية على مائدة منخفضة ثم جلس بجانبها، واخذت هي تنظر اليه وهو يسكب لها فنجاناً ثم يضعه امامها.

سألته هامسة: «كيف... كيف عرفت؟»

«كيف عرفت مكانك؟» نظر إليها وتابع: «أرى انه قد حان وقت الاعتراف يا فيليسيا.»

«الاعتراف؟ ماذا تعني بذلك؟» وتملكها شعور بالقلق وعدم الارتياح.

«حسناً، فلنبدأ بالقول ان هيلاري هي ابنة عمي.»

«ماذا؟ هذا غير ممكن.»

«بل هو ممكن، فاسمها هيلاري كارادين لويس.»

فنظرت إليه ذاهلة وقد ابتدأت تستوعب ما يقول، «اتعني...» واستعصت عليها الكلمات برهة، «اتعني انك طلبت منها ان تأخذني اليها شريكة في شقتها؟»

فأومأ بالإيجاب.

«ولكن... لماذا؟»

فهز كتفه: «فلنقل فقط، انني اشعر بمسؤولية خاصة نحوك.»

«آه.» واضطرم غضبها وراء ما شعرت به من ذهول: «واظنك توسطت لأجلي لكي احصل على هذا الدور، ان هذا بإمكانك أليس كذلك؟»

فأجاب معترفاً: «نعم، بإمكاني ذلك، ولكنني لم افعل هذا، يا فيليسيا، فهذه ليست طريقتي في العمل.»

فقالت بخشونة: «أحقاً لم تفعل ذلك؟ انك تستعمل الواسطة وتتصرف مع الناس كما وأينما تريد، انني سأوقظ هيلاري وأسألها.»

فوضع يده على ذراعها طالباً منها برفق، عدم الذهاب «انها ليست هنا.»

فاستدارت اليه تقول بعنف وعيناها تلتهبان: «هل طردتها...؟ ومن بيتها؟»

أجابها مطمئناً: «انها مقيمة في منزل صديقة لها انما لهذه الليلة فقط.»

«هذا بالضبط ما قلته انا، اردتها ان تبتعد عن الطريق، وهكذا ودون ان تجرؤ هي على الكلام...»

فوضع براند اصبعاً على شفتيها يسكتها: «كنت بحاجة إلى الحديث اليك... وهي نفسها التي قالت انها ستتركنا بمفردنا هذه الليلة.»

«حسناً، لقد وصلت إلى ما تبغي، فماذا تريد ان تقوله لي؟»

لكنه نظر اليها طويلاً، واخيراً، عندما اخذت تتململ بضيق إزاء نظراته قال: «انك شديدة الشحوب، ماذا حدث لسمرة بشرتك الجميلة تلك؟»

فردت عليه بحدة: «اظن الشيء نفسه بالنسبة إلى سمرة بشرتك.» ولكنها عندما أمعنت النظر إليه، رأت الظلال تحت عينيه، والخطوط حول فمه قد اصبحت اكثر عمقاً، فقالت دون وعي: «أواه، يا براند، منظرك يبدو رهيباً.»

فقال بجفاء: «اشكرك جداً، واظنك ستصبحين كذلك إذا انت أمضيت، مثلي الستة أسابيع الماضية جالسة في الصف الأخير من مقاعد المسارح، في نصف المسارح القائمة بين مدينتي بريستول وغلاسكو.»

فقالت بصوت مختنق: «اتعني... انك كنت هناك؟» كيف لم تعرف ذلك؟ لماذا لم يخبرها شيء ما... بأن... هناك في الظلام كان يوجد الانسان الذي أحبته اكثر من أي انسان آخر في العالم؟

ولكنها عادت فتذكرت شيئاً آخر، فأظلمت عيناها بالشكوك مرة أخرى: «ولكن قبل ان يصل العرض إلى برمنغهام، كنت أنا في الكورس فقط.»

فابتسم بغموض، قائلاً: «اعرف ذلك، ولكنني مع هذا كنت أريد ان أراك.»

فقالت مترددة، غير قادرة على مواجهة نظراته: «آه...» ولكنها عادت فقالت: «نعم، ولكن عندما اصيبت ساندي ألم تتدخل أنت في...؟»

«اقسم انني لم اتدخل بواسطة لأجلك، كل ما فعلته هو أنني، عندما انسحب الممول بعد اصابة ساندي، تدخلت انا

فدفعت مبلغاً انقذت به المسرحية بعد ان اصبحت مهددة بالتوقف.»

فشهقت ثم سألته: «ولكن... ولكن ليس هذا ما قيل لنا، لم يعرف ذلك احد، أليس كذلك؟»

وتملكها الذعر... هل علم بذلك احد سواها؟

فأجاب: «لم يعلم بذلك احد، ما عدا ديف وبقية المستثمرين، فقد اصررت على ان يكون الأمر سراً.» ولوى شفتيه: «لقد ساورني شعور بأنك لو علمت بتدخلي، لتركت التمثيل.»

«ولكن كان من الممكن ان اكون فاشلة في هذا الدور، وبالتالي تخسر انت نقودك... وسيكون الذنب في هذا ذنبي أنا.» وارتفع صوتها لدى هذا الخاطر المفزع.

فهز رأسه قائلاً: «انني لا اساند إلا من اتوسم فيهم الفوز، يا فيليسيا، وقد كنت متأكداً تماماً من انك ستفوزين.»

كان ذهنها مازال يجاهد لاستيعاب ما تسمع منه، ثم قالت ببطء: «اذن، فكل الشكر ينبغي ان يكون لك انت لأجل استمرار عرض المسرحية، وطبعاً، لولاك لما كنت فكرت في الغناء، وهذا ما كنت اقترحته عليّ في بيتك ذاك في جزيرتك الصغيرة...» وسكتت فجأة وهي تجاهد في سبيل التغلب على موجة مفاجئة من الألم تملكتها لتلك الذكرى، ثم عادت تتابع قائلة: «ولكن مادمت في انكلترا طوال هذه المدة، ماذا جرى لمسلسلك التلفزيوني ولكتابك الذي كنت تقوم بتأليفه؟»

«حسناً، ان على ذلك ان ينتظر فترة.»

«ولكن سيصبح بمقدورك العودة إليهما الآن.»

«نعم، فأنا عائد إلى جمايكا بعد حوالي يومين.»

فأجفلت وهي تشعر بطعنة ألم مفاجئة، وفي محاولة لتغطية ردة فعلها لهذا الخبر، قالت: «يجب ان اذهب لأضع أزهاري في الماء.» ولكن قبل ان تقف، خطر لها خاطر آخر، فعادت تجلس قائلة: «انك من أرسل إليّ تلك الأزهار أليس كذلك؟»

فقال على كره منه: «نعم.»

«انها رائعة.» ومنحته ابتسامة مرتجفة، ثم تملكها الرعب فجأة من ان تفضحها عيناها، فعادت تشيح بوجهها لتمسك بفنجانها الشاي.

«لماذا هربت في ذلك الصباح، من بيتي؟»

فعادت تنظر اليه لسماعها كلماته الرقيقة هذه، وإذا بها ترى ذلك التعبير القديم المألوف في عينيه والذي لا يمكن لها أن تقرأه أبداً.

وأخيراً قالت بخشونة: «لأنني خفت من ان تحتقرني.»

«احتقرك؟ آه يا...» وتوترت أساريره ثم تابع قائلاً: «فيليسيا، كيف بإمكاني ان احتقرك وأنا الذي أمضيت الخمس سنوات الماضية احتقر نفسي؟»

«ماذا تعني؟» وشل ذهنها خوف مفاجيء لم تعرف معه ماذا تقول.

وجواباً على سؤالها، مد يده إلى جيب معطفه الذي كان ملقى على احد الكراسي، ثم أخرج منه علبة ناولها إياها ففتحتها، وبيدين مرتجفتين، اخرجت من داخلها قرطها المفقود.

وهمست: «إذن فقد كنت تعلم؟ كنت تعلم طوال الوقت؟»

«بأنك الفتاة التي كانت في سومبرا تلك الليلة؟ نعم.»

فقالت بصوت لا يكاد يسمع: «وكيف؟»

«من وسم الولادة الذي فوق ركبتك... ذلك الوسم الغريب والذي بشكل القلب والموجود دوماً هناك.. والذي كان ضوء القمر قد كشفه لنظراتي في تلك الليلة، وعندما جئت بعد ذلك لزيارة جدك... كنت انت في طريقك إلى الشاطىء، هل تذكرين؟»

فأومأت ايجاباً، حينها سقط شعرها إلى الأمام يحجب وجهها.

«وهذا الوسم نفسه رأيته مرة أخرى فوق ركبة تلك الفتاة الصغيرة الجميلة وهي تمر بجانبي لتهبط الدرجات، عند ذلك عرفتك على الفور، كنت في السابعة عشرة فقط، وناضجة الجسم كامرأة مكتملة، ولكنك في داخلك كنت ما تزالين طفلة، لقد رأيت ذلك في عيني جدك، فقد كان يعاملك كطفلة، وهذا بالطبع ما كنته... مجرد طفلة، وقد تملكني القلق عليك عندما خرجت عائداً إلى حوض السباحة، فوجدتك قد هربت، فلحقت بك إلى الطريق وإذا بي اسمع صوت دراجتك البخارية، لم اعرف في أي اتجاه ذهبت لكي أبحث عنك.» ولوى شفتيه بجفاء، «لو أنني لم اعثر على قرطك هذا قرب حوض السباحة في اليوم التالي، لظننتك نوعاً من السراب، وإذا بي أعثر عليك، تلميذة في منزل جدك.»

ثم سكت فجأة، ولكن بدا عليه انه يرغم نفسه على متابعة الحديث، فعاد يقول: «منذ ذلك الحين حاولت اقناع نفسي بأنك فتاة سيئة السلوك، وذلك عندما رأيتك في حفلة لازلو،

ثم عندما وجدتك مع ذلك الشرير آل... اظنني كنت أريد ان يكون ظني ذاك بك حقيقياً لكيلا أقع في غرامك، ولكن ذات يوم وكنت انت عندي في ذلك البيت في الجزيرة، نزلت اليك على الشاطىء، فوجدتك تصفين صدفات صغيرة كنت جمعتها ثم...» وتغير صوته فأصبح رقيقاً حنوناً ما جعلها تهم بالبكاء، «ثم رفعت بصرك إليّ بابتسامة تشع براءة ما جعلني أعلم ان ليس بإمكاني ان اخدع نفسي بعد ذلك.»

فقالت له: «ولكنك طردتني من بيتك بعد ذلك النهار الذي اخذنا نغطس فيه معاً؟»

«كنت أعلم انني قد آلمتك، ولكنني فقط أردتك ان تخرجي من بيتي.»

«لماذا؟»

«لأنني لم اعد أثق بقدرتي على أن ابعد يدي عنك بعد ذلك، ونحن في منزل واحد، هذا هو السبب، أي منافق سأكونه لو انني خنت ثقة جدك بي وهو الذي جعلني وصياً عليك لأصون اخلاقك؟»

سكت برهة، ثم عاد يقول: «ثم بعد ذلك... بعد ذلك جئت إليّ بنفسك وذلك ليلة عيد ميلادك... وكنت قد أمضيت النهار بطولة اتصارع مع نفسي... كنت متلهفاً إلى الذهاب اليك... ولكنني لم استطع، وبدلاً من ذلك، إذا بك تأتين إليّ.»

فقالت: «ولكنك تركتني عند الصباح التالي ورحلت.»

فقال: «لأنني خفت عليك من نفسي، لم اعد استطيع المقاومة، ولكن عندما عدت أخيراً، وجدتك قد غادرت البيت، فأمضيت ثلاثة ايام احاول اقناع نفسي بأن هذا افضل، ولكنني عدت فاستسلمت لعواطفي فذهبت إلى

جمايكا أبحث عنك، وإذا بي أعلم انك سافرت إلى لندن في نفس اليوم، وهكذا كان الوقت قد فات لأعترف لك بالحقيقة.»

فسألته بصوت يرتجف: «الحقيقة؟ أي حقيقة؟»

«لقد أدركت هيلاري، ابنة عمي، تلك الحقيقة على الفور، وذلك عندما اتصلت بها هاتفياً اطلب منها ان تجد لك مكاناً تقيمين فيه في لندن، وتأخذك بحمايتها لأجلي، فهي قد ضحكت وقالت: «آه، يا ابن العم، إذن فقد وقعت أخيراً في الغرام، ما أشد سروري بذلك.»

ما الذي كان يقوله؟ كانت كلماته تتراقص في ذهنها دون ان تفهم منها ما يعنيه، ولكنها شيئاً فشيئاً عندما اخذ الجليد الذي يغلف قلبها يذوب، تجمعت الكلمات لتؤلف أروع ما كان يمكن ان تتصوره.

التفتت إليه ووجهها يتألق، ولكنه كان قد نهض واقفاً، ومد يده إلى معطفه يرتديه.

ثم التفت اليها وقد كست الرزانة ملامحه: «سأشعر على الدوام بعرفان الجميل نحوك، يا فيليسيا، ففي ذلك الوقت، طوال السنوات الماضية كنت قد انجرفت مع التيار، وكنت قد جئت إلى سومبرا لأحاول ان أراجع مجرى حياتي واقيّمها، كنت في الثلاثين من عمري، ثرياً، ومتحرراً تماماً من وهم وسحر المسارح... والتي كان يدور في محورها كثير من امثال آل، وكثير من امثال لازلو، عند ذلك وبعد تلك الليلة التي قابلتك فيها، اخذت في الحقيقة، في التحول لكنك الآن ومن خلال جمالك وبراءتك وطيبتك... وخلال المشاعر التي ايقظتها في نفسي... قد اعدتني الآن إلى الحياة، ولكن، بعد

تلك الليلة في سومبرا، لا اتوقع ان يكون لديك أي شعور نحوي، آه، لا تقلقي فأنا لن احرجك بعد الآن.» وكان في صوته مرارة واضحة، وهو يتابع: «ولكن قبل ان اذهب اريدك ان تعلمي بأنني منذ ذلك الحين لم اعرف غيرك من النساء، آه، يا فيليسيا، يا لها من سخرية، فقد قابلت الفتاة الوحيدة التي يمكن ان أحبها، ولكن لتصرفاتي الوحشية معها...»

«كلا... عليك ان لا تعتقد بهذا أبداً، يا براند.» قالت ذلك بسرعة. مهما حدث، فهي لن تسمح له بأن يستمر في حمل هذا العبء الثقيل من الشعور بالذنب، ابتلعت ريقها، ثم تابعت تقول هامسة: «لم يحصل منك ما يسيء إليّ، يا براند، فقد كان تصرفك مع فتاة تعتبر سارقة، كان طبيعياً تماماً لم يترك في نفسي سوى الندم والشعور بالعار.»

«آه، يا حلوتي فيليسيا.»

ثم ابتسم لها بحزن: «ولكنك كنت صغيرة، صغيرة جداً...»

ومد يده إليها مودعاً ما جعل قلبها ينقبض بالألم: «وداعاً، يا فيليسيا.»

«كلا.» ورفعت رأسها تنظر إليها، ورأته يرتجف وتألقت عيناها بالحب الذي طال كبتها له وجهادها في إخفائه في اعماق نفسها.

وقال بصوت يرتجف: «فيليسيا، يا حبيبتي.»

«آه، يا براند.» وجاهدت لكي تبتسم: «لقد كنا نحن الاثنين، احمقين، كيف ضيعنا من حياتنا خمس سنوات؟ آه، نعم.»

وعندما أخذ يحدق فيها بعجب، تابعت تقول: «نعم، فقد احببتك أنا أيضاً وذلك منذ تلك الليلة في سومبرا... وأنا مثلك، لم اعرف رجلاً آخر.»

«يا حبيبتي الغالية.» وكان التوتر في وجهه يتلاشى، واختفت الخطوط وذلك بعد ان سمح أخيراً، للبهجة بأن تتغلغل في كيانه.

«إذن، فلا شيء يمنعنا من الزواج.»

فقالت تعترض: «ولكنني وقعت عقداً مع المسرح بالعمل ستة أشهر...»

فقال بأسف: «وبعد ذلك؟»

أجابت وهي تلهث: «ولكن انتظارنا ستة اشهر لكي نقوم بشهر عسلنا في جزيرتك الجميلة تلك، لا يعني ان علينا ان ننتظر كل تلك المدة لكي نحتفل بالزفاف، أليس كذلك؟»

وتنهدت وقد تملكتها السعادة بعد ان سلمت حياتها إلى الرجل الذي امتلك قلبها وروحها.

تمت